نشوة ذاكرة

أ د. عقيل حسين عقيل

دار الكتاب الجديد المتحدة

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or trans mitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying's, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher,

الطبعة الأولى

تموز/ يوليو/ ناصر 2004 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 5982/ 2004

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-247-9

دار الكتب الوطنية/ بنغازي - ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار الكتاب الجديد المتحدة

اوتوستراد شاتيلا. الطيونة، شارع هادي نصر الله- بناية فرحات وحجيج، طابق 5، خليوي: 03-933989- هاتف وفاكس: 1-542778-00961- بريد إلكتروني:

Szrekany@inco.com.lb

ص.ب. 14/6703- بيروت- لبنان

الموقع الإلكتروني www.ocabooks.com

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب:

13498، هاتف: 4448750-4449903-3338571. 21.

00218- فاكس: 4441758. 21. 00218.

طرابلس- الجماهيرية العظمى- oeabooks@yahoo.com

(1)

تتوج ملكة التمييز في فسحتها ملكة بين نجوم الحواس التي تلمع في محيطها، وفي كل حركة تدرك أن المسافة التي يقطعها البصر في ساعة تقطعها البصيرة في أقل من ثانية، وفي كلتا الحالتين يحتاج العقل إلى استراحة ليميز فيها بين مدركات البصر والبصيرة، ويحتاج إلى استراحة أخرى يصطحب فيها السلامة ليسمو بها إلى ميادين التذوق التي تمكنه من النزهة.

فلتسلم الحواس، ولكن ليس كل من سلمت حواسه يتذوق إلا المتوسمين، الذين يمتلكون ملكة التفرس في الاستقراء والسباحة والسياحة في عيون الناظرين وقلوبهم. كانت الرحلة نزهة بين الجفنين، عند الشروق الكل يتزلج على المضمار الجليدي، وفي كل استراحة يتم تناول الشاي والقهوة على مدارها العنبري الذي يحيط البحيرة التي تلونت بلون السماء وظلال الأشجار الكثيفة التي تصطف على القطبين الممتلئين بالعشق الشرقي، في كل لحظة تتجاذب لتروي قصة عشق أبدي، فيه الود يرسم بسمة، يمحو حزنًا، يشفي مرضًا، يزرع حبًا، فيه زاد يغني محتاجًا للود.

المراكب والسابحون في مياهها الدافئة في عيون المتوسمين آية، وتحت ظلال أشجارها القطبية آية، عندما تسبح في قلب البحيرة وتنظر إلى تلك الأشجار التي تصطف علوًا على جانبيها، ترى القمر وردة بيضاء متفتحة في قممها، وتاجًا موضوعًا على رأسك، حينها لا تستطيع أن تتمالك نفسك إلا في العوم، الذي يمدك بفسحة استراحة تسترجع فيها أنفاسك لتسبح من جديد. الغوص في أعماقها نزهة تمكنك من رؤية اللؤلؤ والمرجان وتسمح لك بالاستلقاء على نعومة الإسفنج الذي يملؤك بالدفء ويبعث فيك الخشية والحياة، ويذكرك بدفء من تحب، ويمكنك من دعوته إليك إذا ما

اشـتد عليك الأمر، وترى الأسـماك ألوان طيف مظفرة في جموع سـارية في حركة مع ضفائر الإشعاع الشمسي.

في الأعماق إذا أردت أن تتنزه عليك بزيارة المتاحف، ومراكز علوم الذاكرة، وعلوم تقوية البصـيرة، وشـعب التخصـص في علوم تغذية الفؤاد، وصـحوة الضـمير وطمأنة النفس، وإذا أردت أن تطفو لأجل المتعة بالتزلج ثانية فانظر إلى تلك الوردة البيضـاء التي أزهرت بها تلك الأشجار، فتجدها تاجًا على رأسك من القاع إلى الاستراحة.

الأطفال يلعبون ويتغنون مع طيور البط والإوز، التي تتنقل سـباحة وطيرانًا بين البحيرة ومحيطها العنبري ومضـمارها الثلجي، يمدونها بالغذاء وتمدهم بالمتعة، حدود المعرفة في كل حين تتسـع مع الرمش الذي يتجدد فيه التجاذب بين القطبين المسبحين بحمد الله.

حديثك عن الميم والمضـمار والمحيط وكأنك تتحدث عن البحر الأبيض المتوسط.

صـدقيني إنها أكبر، وإذا أردت أن تعرفي أكثر عليك بسـؤال المتوسمين فيها.

ومن هم هؤلاء المتوسمون!؟.

المتوسـمون هم: إذا ما نظروا قرؤوا، إذا ما دخلوا عبروا وهم إذا ما سبحوا تمكنوا من الغوص، وإذا ما استشرقوا جذبوا.

وهل لي بمعرفتهم؟.

إذا أردت ذلك عليك بالدخول إلى حيث هم يكونون.

أين يوجدون؟.

فيها. في كل كبيرة وصـغيرة، فمنهم من يمارس الرياضـة على محيطها الثلجي، ومنهم من يحتسـي القهوة على مضـمارها العنبري، ومنهم من هم في حالة غوص، لأجل تجميع الكنوز، والرقي في المعارف والعلوم.

أية كنوز ! وأية معارف وعلوم!؟.

العين كنز تمكن المبصـر من رؤية البصـيرة واسـتقرائها، بعد أن يلم بمعارف الدخول لســـويدائها، وبعد أن يتعلم قوانين العوم والغوص تحت ظلال أمواجها العاتية إذا ما عصـــفت، يســـتطيع بعدها أن يدخل إلى ســـويدائها حيث الشـــبكة المعلوماتية التي تعرض في العدســـات اللامة والمشـتتة في آنٍ واحد، لتعطي فرصًـا للمقارنة عندما يصـبح المبصـر قرينًا لقرنيتها المعرفية.

بعد أن عرفت قوانين العوم في أعماقها سبحت في بحرك اللجي فوق الأمواج، وسـط الأمواج، بين الأمواج، ثم غصـت حتى القاع حيث تنطفئ الأمواج.

ما أجملك وأنت تتزلجين على القطبين، وما أجملك وأنت تخوضـين السباق على المضمار، وما أجملك وأنت ساكنة حيث تسكن الأمواج.

نحن في حـديثنـا دخـل أحـد المتوســـمين، وهو يرتـدي زي التزلج وزلاجاته بين يديه، ونحن كذلك نرتدي، مرحبًا بك.

مرحبا بكما.

ما رأيك نتزلج سويا؟

بكل سرور.

ها نحن على القطـب الشـــمـالي، في اتجـاه الشـــروق نتزلج مع المتزلجين ونسـابقهم، صـفوف تتموج على البسـاط الثلجي، يزداد الثلج كثافة كلمـا اقتربنـا من زاويـة الاحورار، التي لو لم نضـــع على عيوننـا نظـارات شمسية ما استطعنا التمتع برؤية جماله. جمال تملأه الخشية، تضفي علينا خشـية كلما تمعنا في صـفاء بياضـه، والشـمس في كبد السـماء تقدم لنا كل التقدير على إجـادتنـا التزلج بكـل مرونـة وتفوق، مـا جعلهـا تقدم لنـا طلبًـا تعرض فيه اســتضــافتنا وجبة اســتراحة تتخللها وجبة خفيفة وشــيء من

العصـــائر الطبيعية في المقهى الذي يقع في الزاوية المطلة على شـــلالات الزعفران، رذاذ المياه المنفوشـــة يتطاير رطبًا على وجوهنا التي به ازدادت نعومة، اســـترحنا هناك إلى أن جاءتنا المتعة تقدم لنا طلب مرافقتنا خبيرة إلى اســـتكمال الرحلة على المحيط الثلجي، تقديرًا منها هي الأخرى لتفوقنا على جميع المتســابقين. فنهضــنا معها نعبر أنهار الحنان، التي تتدفق بين القطبين، حتى بلغنا الســـواحل الشـــرقية للقطب الجنوبي. ونحن في اتجاه الغروب، ظلال الســـحب الخفيفة المتطايرة مع الهواء، مكنتنا من إزالة النظارات الشـمســية والنظر طبيعة إلى الطبيعة، ما جعل ابتســامة المتعة ترتدي ألوان المحيط الثلجي، إلى أن اسـتقبلنا الغروب خبيرًا ومضـيفًا كريمًا لنا في مطعم المرجان، اســـتراحة من الترحاب، متخللة بحرارة الاســـتقبال الودي الذي نحن في حاجة إليه حيث أمدنا بطاقة كنا في حاجة إليها سـاعدتنا على العبور إلى الشـواطئ الغربية للقطب الشـمالي. الصـعود إلى اتجاه الشمال يحتاج إلى جهد أكبر في مقابل متعة أكثر، بذلنا ما في وسعنا متعة، إلى أن وصـــلنا إلى قمة النشـــوة حيث المســـاء ينتظرنا. عناق كبير يملأه الدفـء وحرارة الاسـتقبال، اسـتراحة يتم فيها تبادل التحية مع السـيد المضـــيف الذي قدرنا حق قدرنا، إلى أن دخل علينا الليل باســـطًا ذراعيه ترحابًا، ثم أهدى لنا نفسـه سكننا مزودًا بلباس مطرز بسـبات الرحمة، حتى رأينا كوكبًا قلنا هذا ربي فلما أفل ظهر اليقين (لا أحب الأفلين)، فارتبطنا مع شبكة المعلومات فكانت الحقيقة أن سويداء القلب هي المركز الحضاري لإنتاج القيم، وأن ســويداء العين هي الشـــاشـــة التي تبت من خلالها القيم المنتجة. دائرتها تسـع العالم وتسـتوعبه، المبادلة المعرفية مع سـويداء العين تنصـهر في بوتقة مع رواء المتفرسين، فتحرك اللسـان دون عجلة من أمره، لينطق الحقيقة أني لا أحب الآفلين.

دعينا وســباتنا إلى دخول الســويداء، فتســابقنا إلى دخولها، فكانت جيوش الفتح زاحفة على المعســكرات وجنودها رافعة الرايات البيضـــاء مع رايات الفاتحين بالتماثل، فتحت البوابات بإرادة، تخندق الجنود في كل خلية

من خلايا الوطن، استسلام مع بعض المناوشات على الحدود، كانت مبررًا لعدم تمكن بعض الجنود من التمركز في مواقعهم المحددة على خريطة الإحداثيات. أعتمد منطق الحوار لغة للتفاوض، تجاوزا للغة المجردة، فكانت الدمعة في حالة تبادل مع الحجة الهادئة، سقطت كل العبارات الساخنة مع الهدوء استيعابًا وتقديرًا للحالة والظرف. اتفاق تكون العصا فيه بيد المعلمة، والقلم والورقة بيد التلميذ. التلميذ تملأه الثقة، والمعلمة يملأها التردد. جدال بينهما على الدرس، تود المعلمة أن يقتصر الموضوع على المتوقع فقط، والتلميذ يرغب أن يمتد ليشمل غير المتوقع. الابتسامات بينهما تتبادل عبر الهاتف، وفي الزمن غير المتوقع تلتها قبلات حسن النوايا حتى أنها لامست كل جندي في كل خلية من خلايا الوطن وهمست له في أذنيه، استحسان وفيض جعل جميع مفاتيح التحكم الذاتي فاقدة السيطرة على أجهزة الاستقبال، كأنهما سكارى وما هم بسكارى. دخل كل منهما حوض السباحة ليصحو من (وكأنهما سكارى) قطعًا للشك، خرجًا من حوضي السباحة وهما لا زالا (وكأنهما).

انتشرت أجهزة تجميع المعلومات بين الظاهر والكامن، اتفاق مع ظهور القمر تسقط فيه العصا من يد المعلمة، وترقص فيه الأرنب مع القط على ضوء القمر في البستان الحلم، أنفاس الحبيبة عبر الهاتف تسري في بدني ونفسي وروحي، وأنا أسري مع الأنفاس والهمسات والصمت.

أحبك في اللسان كلمة، وفي المشاعر والإحساس والوجدان أنت، من يصدق أنك أنت التي لا تصدق؟، وأنا.. أنت، لا أصدق، من يصدق؟. في الصباح دق ناقوس الصباح، هيا عد، فالعصا لن تعود يا حبيبي، النمارق والزرابي نسجناها حنينا، والغياب لا يطاق وكأن اليوم مجموع السنين، يا حبيبي عد فأنا أنت مثلما أنت أنا، عد الوطن في انتظارك.

أحبك يا وطني من الحدود إلى الحدود، وأنا بين الضلوع ساكن قد تم أسري، سارية وقت الغروب، ترتسم شفقا في نفسي، وتنام السارية ما بين

رمشي في الشروق تصحو فأمشي، وسماء البرزخ عند العبور يبتسم، ونسيم الودي فاتح الصـــدر يغوص، منقذًا خفقان قلبي، إنه كان ملاكًا، عندما قال السلام، إنه كان رسولًا عندما بدأ الكلام، إنه النفس التي كلما لمت ألام.

أنت من يحيي الشـجون، أنت من يطفئ نارًا، أنت في قلبي سـكون، وفي ودي انتشار.

تقرضين شعرًا أيتها الملاك، أم تقولين نثرا!

أتغنى بك يا حبيبي.

لأول مرة أعرف يـا حبيبتي أن الكلام يعرف قـانون العوم ويمـارس السباحة والسياحة في وقت واحد.

ماذا تقصد؟.

لقد رأيت كلماتك تسبح في قلبي، ورأيتها تتنزه بين خلجانه ونبضـاته، ورأيتك تســـابقينها وأنت تجدفين في نهر البرزخ حلاوة ولذة، ورأيتك وســـط الازدحام تتوجين ملكة جمال على من كان مشاركًا في السباق. تقدمت إليك مهنئًا، فتصـافحت كلماتي مع كلماتك، وتغنينًا سويًا يا حبيبي، وتعانقنا على قمم الهوى، ونظرناها تحتنا بســطت زرابي هي الســفوح فوق أودية المحبة، ونظرنا من علو لعلو، فوجدناها السماء في ملامسة الشعور، وتحسسنا سويًا فالشــعور كاد أن يغزو الســماء، لولا دنياك التي صــعدتني من عثور، من منصـات القرين للقرين، فتلاقينا سويًا سابحين في الهوى، ليتها ساعة تطول قبل أن يأتي المساء.

ســـاعة الاســـتقبال الأولى تحتاج إلى عزيمة وجرأة، يتم فيها اختراق الصوت من السويداء إلى كل الميادين والساحات والمواقع المتقدمة، وتحتاج إلى أيد ثابتة توقد الشمعة وتضعها منارة بين بطيني القلب، لتهدي المبحرين إلى شـواطئ النجاة، وإلا سـتنطفئ ويضـل المبحرون سـبلهم في التيه. على الفور كنت مبادرًا بلا تردد، وخطايا تســـابق كلماتي، مرحبًا مرحبًا، كانت

السباقة في الوصول، ثم تلاها الاحتضان الذي كدت أن أنام فيه، لولا دقات القلبين المتناغمين بالنبض، دفء كنت في أمس الحاجة إليه، وأعتقد أنها كذلك.

كلمات متقطعة تتلعثم بين الحين والحين، حيث الاندماج بينها والآهات، إلى أن سمعت طفلًا ينطق بكلمة (اصبر...، اصبر...) فنظرت إليه، فإذا به ساكن في فم من احتضن، فتقدمت نحوه، وقدمت إليه من الحلو ما يرضيه.

ما هذه الحلاوة ومن أين أحضرتها؟، هل من مزيد؟.

نعم.

ثم هل من مزيد؟

نعم. وفي كل نعم أنواع المحليات تتنوع بالتبادل، وكلانا هل من مزيد؟. إلى أن جاء النوم الذي صحانا مما نحن فيه، دون أن يعلم أحدنا بساعة حضوره، إلا أننا عرفنا ذلك من الصباح الباكر، الذي كان واسع الفضل علينا في العودة إلى ميادين هل من مزيد؟.

استئناف تتضح فيه الكلمات التي تنطق ولا تكتب من شدة حرارة الشوق، ومعجزة اللقاء في الزمن غير المتوقع، ويا ليتها تكتب، ليتذوق من يأتي من بعدنا، حلاوة ما تحتويه من ذوق رفيع، ويا ليتها تقرأ ليتعلم النشء الأدب وتقدير الآخر الذي هو في أشد الحاجة للاحترام والتقدير. الساسة ورجال التاريخ، الفلاسفة المفكرون والعلماء العظام، المراهقون والناضجون، والوعاظ والمرشدون المصلحون الذين يدينون بالديانات السماوية والوضعية، هم جميعهم مجتمعون في صدري ويدقون مع نبضات القلب حبًا للوطن الذي عندما تسمو به النشوة لا يستطيع نطق الكلمات التي تكتب، حيث سموه إلى تلك التي تنطق بأذواقها ولا تكتب. إنها ضمادات الجروح، السارية بين الضلوع، العابرة كل الحدود من الشمال إلى الجنوب بإرادة.

وأنا أكتب هذه العبارات يدق الهاتف، وإذا بعبارات الاحتجاج تملأ صدر السارية.

من هذا الآخر الذي تتحدث عنه وتسأل، ولا تسأل عني؟. ثم أرجوك ألا ترد حتى أفرغ من كلامي، أنا ألاحظ منك الجفاء، والغياب، ولم تعد كما كنت أنت، أخبرني.

كلمات جافة من الفم المبتل، تحتاج إلى وصـــفة من قاموس المودة الذي جمعت كلماته من سويداء القلب. ما بك يا حبيبتي؟.

لا، أرجوك.

وكأنك تطلبين مني الإجابة، وفي ذات الوقت تطلبين مني ألا أتكلم أو لا أنطق بكلمة!.

لا، تكلم.

من فضلك أن تتحركي من مكانك قليلًا، عله يكون أفضل.

ها قد تحركت.

يبدو أن معرفتك بقيم الطيور أكثر من معرفتك بقيم بني الإنســـان، فراخ الطيور وحدها، عندما تغادر أعشـــاشـــها لا تفكر في العودة لها ثانية، أما نحن تكاد تتفجر صـــدورنا وتتمزق أحشـــاؤنا من الفراق، ومع ذلك لكل قاعدة استثناء، فالآخر الذي تعترضين على ذكره، أو معرفته، قد يكون هو من في حاجة إلينا، ونحن في أمس الحاجة إليه، فلكي تكونين أنتِ التي تحب، لابد أن تكون لك نفس، وروح، وبدن، فالبدن بالنســـبة للروح والنفس هو الآخر، والنفس بالنسبة للروح والبدن هي الأخرى، وهكذا الحال بالنسبة للروح مع النفس والبدن. لذا لا يمكن أن تكون لك حياة المحبين، إلا إذا استوعبت الآخر، فالآخر في كثير من الأحيان يكون سندا.

وما يدريني ألا يكون على حسابي.

هذا صـــحيح، ولكن لماذا الأحكام المســبقة؟. ومع ذلك أســألك: لو قلت في نفســي أنا لك هل تســتطيعين امتلاكي؟. فأنا كلما نظرت إلى من تعتقدين إنهن في ســوق المنافســة الحرة، كلما ازددت تمســكًا بك حبيبة. فأعطيني حريتي واتركيني لكي يشدني الشوق إليك.

أولًا: هل هذا يعني أن قربك مني يقلل من شــوقك إلي؟. وثانيًا أنت دخلت بمدد من أمواج الحب الهادئة تلامسني من قطبي الشمالي إلى قطبي الجنوبي ما جعلك تمســح على كل خلية من خلايا جســمي بريشــة انبعاث الحياة، ما جعلني أضـــطر إلى قفل الأبواب والنوافذ عليك وأرمي بالمفاتيح في المحيط لتستمر المناغاة بين الريشة وخلاياي وحتى لا يجف النبع الذي انبجس في حياتي.

صــدقيني فالذين يعيشــون في بحار الجمال ويســبحون في أعماقها يتمكنون أثناء الغوص من التمتع بمناظرها الجميلة بما فيها من أحجار كريمة من لؤلؤ ومرجان وألوان الطيف المزينة لأســماكها الجميلة ونباتاتها وقمم جبالها وهضــابها والوديان، وعندما يطفون مع شــفق الغروب تكســي أجســامهم بلونه الذهبي الذي يكســو مياه البحار والمحيطات مثلما يكســو الســماء، ويتمكنون من محادثة القمر والتغني معها عندما يســبحون على ظهورهم ليلًا، ولكن صــدقيني فمناظر شــواطئها الخلابة وبســمات أمواجها المبهجة، لا يعرف حسنها ولا قيمها الممتعة، إلا بالخروج منها إلى اليابسة الجرداء، التي تعطي للمقارنة أهمية ومعني. وصدقيني أن من يقضــي على الشك، ستكون له الثقة عشيقة، وأن من يبني قصورًا منه، فالوهم قد يجعله على مقربة من ملامســة الســماء، ثم يرميه في القاع، وعندما يدخل الشــك المنازل أو القصور لا يخرج منها إلا وهي خاوية أو هاوية على عروشها.

أحبك بلا تردد، وعلى فكرة برغم هذا اللوم لقد تغنيت فيك.

من حقك تلومين وتتغنين كيفما تشـــائين، ولكن هل من حقي أن أسـمعها بلسـان ذلك الطفل الذي قال لي (اصـبر.. اصـبر..) يوم أن كان اللقاء الأول؟.

قلت في غيابك:

لا تغيب حيرتي هي في غيابك، كن قريبًا راحتي هي في اقترابك، أنت في قربك طهارة، أنت عمري واختيار، روحي يحكي فيك سرًا، هل ترى في السر عارًا؟.

قطعًا لا بل أرى في الحب ســمة، والعلوم المســتديمة، تبني أمجاد التواصل في الحضـارة المستقيمة، وأرى فيه الحفيظة من شرور الحاسدين، أنت كالآية الكريمة تحفظيه وتحفظين، فاجعلي الثقة عهدًا أم ترين أن بيت الشك فينا؟.

لا. لا أقصـــد ذلك، بل أعرف يوم أن بعثت إليك ودي، قد لاقته مودتك بكل ترحاب، ويوم أن فرشـت إليك حبي قد تلامسـت جنبا إلى جنب مع مودتك التي زلزلتني من رأســي إلى قدمي، فعرفت الشـوق من لمسـات بديك، وتذوقت عســل أزهار نباتاتك الزعترية، الذي شــفي غليلي وما بي، ولهذا لا أطيق، أم ترى بي جنونًا.

اسـتغفر الله، لسـانك حلاوة العقل، وشـعورك نبع، يروي الضـمانين، ويجعل النفوس الجافة خضـــراء نزهة، تتعدد فيها ألوان الورود والزهور، وتتنوع فيها رياحينها، التي كلما تهب النســمات تجود بالعطاء والمزيد، إنها مع الشـــروق والغروب تتجدد وتتلون فتزيد، والتي عندما يأتي المســـاء، يكسـوها بالسـكينة، فتنام في رؤانا، ورؤانا تتغنى بالورود والزهور ومتى يأتي الصباح لا تنام.

لا تغب يا فؤادي لا تغب، قد عرفت الجنة في قربك دفئًا، والمرارة في الغياب لا تطاق، قد زرعت في آلاف الورود، وجعلت النبض يسمع في

المآذن، في المدينة، التي شيدتها في وسط صدري، والشموع، نورها يملأ المدينة، لا تغب أنت عمري، أنت من أوقد الشموع، أنت من سكن المدينة، فأنا أعطيك عهدا لا أخون، وأريد منك عهدًا لا تخون، هل توافق؟.

احتضان يعتمد فيه النص بالشفتين، وبصمات اليدين التي لا تزور تمتد إلى الصدر الذي لا يزور، تلعثم بالكلمات التي تنطق ولا تكتب، سكارى وما هم بسكارى، توحد أزيلت الحدود بأسبابه، وارتفعت فيه دقات القلب إلى قمم المآذن. أضواء المدينة تتزين فتتزين. بعد ساعتين ونصف من المسير في شوارع المدينة، جلسنا في المقهى العائم، لنحتسي القهوة، ونقتطع وقتًا للراحة، استقبلنا أحد العاملين بالمقهى، تفضلًا، فجلسنا باختيارنا في الزاوية المطلة على أحواض السباحة، وعلى مقربة من عازف العود، الذي يتغنى بكلمات ذات حكمة: (اللي إمضيع ذهب في سوق الذهب يلقاه، واللي إمضيع وطن وين الوطن يلقاه).

أخذت يدي حبيبتي فقبلتهما، وقلت: هكذا حال المحبين، والذين يعتقدون.

ومن هم الذين يعتقدون؟.

الذين لم يدخلوا السويداء بعد، ومع ذلك فهم يعتقدون أنهم من ساكنيها.

والله صدقت فأنا لقد دخلتها مستقرة. وأنت...؟.

أنت بالنسبة لي وطن، لو أضعتك لن أجد سوقًا تباع فيه الأوطان لأشتريك ثانية، فالأوطان إذا ضاعت لا تشترى إلا بالدماء الزكية.

وهل يعني هذا أنك ستبدلني بالوطن؟.

أنا وأنت (نحن) فداء للوطن الذي لا يستبدل، فتراب الوطن مسك حتى ولو وضعت عليه أكوام الزبالة. وعليك أن تفرقي بين تحية العلم وتحية الحكومة.

وما الفرق بينهما؟.

الحكومة قد تكون حزبًا فاسدًا، وقد تكون طبقة فاسدة، وقد تكون فئة أو قبيلة أو عصـــابة فاســدة، وبالتالي لا تســتحق التحية التي فيها التقدير والاعتبار. أما العلم، فهو رمز عام للوطن الذي لا يمكن أن تمتلكه حكومة ملكية رقبة، ما يجعل التحية إليه واجبة والتقدير والاعتراف به واجبًا.

والله لا بديل لك إلا الوطن، فكما أنت في فؤادي، الوطن كذلك دائمًا أراه وردة غير متكررة، حتى ولو قبلت بالهجرة منه اضطرارًا، سأكون ممتلئة بالحنين إليه، إلى أن أعود، أو استشهد في سبيله.

وما رأيك في أوطان الآخرين؟.

بالنسبة لهم بالتأكيد ستكون ورودًا، وأنا أحترمهم على هذا الشعور. أما بالنسبة لي فوطني في وسط أوطان الآخرين مثل الوردة في وسط بساط من النجيلة التي تزرع في ملاعب كرة القدم، وهكذا سيكون وطن الأخر إذا ما وضع موطنه في ذات المقارنة.

القهوة بردت.

نعم القهوة بردت، ولكن حرارة الأشواق لم تبرد، وفي اعتقادي لن...

إننا نحتاجها فالطريق طويل، ونحن في البداية. اجتذاب تكاد مغنطته أن تجعل جســـدينا ملتحمين، لولا أن تداركت الموقف بكلمة (تماسكي) نحن في المقهى، مما جعل الاستئناف مطلبًا مشتركًا. خرجنا على فور، ونحن في منتصـــف عبورنا الشـــارع ينادي ذلك العامل بالمقهى الذي رحب بنا عند دخولنا إلى المقهى، يا ســيد، يا ســيد حقيبتك، يا إلهي نسيتها، استلمتها وكنت له شاكرًا، ونحن في الخطوة الأولى لاستئناف المسير، ينادي ثانية، لو سمحت، لو سمحت، على فكرة لم يتم دفع الفاتورة بعد. ســـامحنا لقد انســـجمنا مع العازف والمغني والكلمات، إلى درجة أننا

نسينا كل شيء. دفعت له مع (البخشيش) الذي تستحقه الأمانة المشيدة في ضميره.

لا زالت الدنيا بخير.

نعم لا زالت الدنيا بخير، ما دام العاملون بخير.

ولكن ليس كل العاملين، العاملون لحسابهم الخاص بخير، أما العاملون مع الحكومة، فلا خير فيهم، إلا الذين يميزون بين تحيتها وتحية العلم، أما أولئك التبع والنعال المتبدلة سيظلون عبئًا ثقيلًا على سيادة المجتمع وممارسة الحرية فيه بأسلوب ديمقراطي، وسيظلون حطبًا في نار جهنم.

وكأنك تود أن تقول الحكومة شيء زائد عن الحاجة.

نعم حكومات غابة الزيزفون زائدة عن الحاجة، أما حكومات الذين يشيدون السلام والمحبة قصورًا شامخة في الضمير، ويغرسون الثقة في بساتين الحلم، ويعترفون بأن للأفراد حقوقًا يجب أن تمارس، وواجبات ينبغي أن تؤدي، ومسؤوليات يجب أن يتم تحملها بإرادة ودون نيابة من أحد، فهذه حكومات تستحق أن يشاد بها، وهذه سوف تعم.

يا ليتها تعم.

تأكدي أنها ستعم.

متى؟ وبصوت من؟.

في بداية هذا القرن المبارك. سيرتفع صوت الناس، وسيعم القرية الصغيرة.

إذن فلننتظر.

لا. فلنعمل سويًا، فالانتظار قد يطيل خيط الإبرة، مما يجعله في كثير من الأحيان سببًا في ضياعها.

إذن ما العمل؟.

أن تغير المناهج والمقررات التي صيغت بأصوات حكومات الزيزفون، التي فرضت على النشء، ما جعلهم تبعًا متبدلين ومتلونين، وأن تصاغ مناهج ومقررات جديدة بصوت الناس، وباللون المفضل عندهم. أن يقدم التقدير والاعتراف لكل من يستحقه، وأن يسحب من الذين لا يستحقونه. أن تقوى الإرادة التي تمكن الجميع من المشاركة في كل أمر يتعلق بهم. أن تحترم الأديان والأعراف والقيم التي تميز كل خصوصية عن أخرى. أن تزاح المتاريس التي يتخندق وراءها المقاتلون بإزاحة مسبباتها، أن يفتح المجال أمام منطق الحوار الذي تكون فيه الحجة قوة تحكيم بين الأنا والآخر. وأن تقدم الحقائق كما هي لا كما ينبغي أن تكون عليه من وجهة نظر حكومات غابات الزيزفون المنتشرة في الشرق والغرب.

ها قد وصلنا، وأنت طول الطريق تحدثني عن السياسة.

كنت اعتقد أنك معي فيما أقول!.

بالتمام، ألم تر إيماءات رأسي طوال الطريق، ولكن ما أعنيه حديث السياسة متعب، فلا يدخل البهجة على النفس، بل يضيق بها إلى درجة تكاد فيها أن تلفظ أنفاسها، أما حديث المودة مدرسة، كلما تعتقد أنك تعلمت تكتشف أنك في حاجة للمزيد، فأنا تعلمت منك الكثير الذي كنت لا أعرفه ولم أكن أتصوره أن يحدث رقيًا هكذا، ويا ليته حدث من زمان، ولكن يبدو أن كل شيء في وقته حلو.

ارتفع أذان المغرب، فلنستعد للصلاة التي تطهر الأنفس والقلوب، ونشكر الله الذي بفضله كانت العلاقة بيننا شرعة ومنهجًا، واسع الفضل إذا أدخلته إيمانًا في قلبك، تجده قريبًا يجيب دعواك إذا دعوته صالحًا، أما إذا كنت محتالًا فلن تنال من دعائك شيئًا.

لدي سؤال ولكن أتركه بعد الصلاة.

هذا أفضل.

يتقبل الله.

يتقبل الله منا ومنك العمل الصالح.

سـبحان الله، ما فكرت أن أسـألك عنه، لقد تحصـلت على الإجابة عليه من الآيتين اللتين قرأتهما أثناء الصـــلاة. في الآية الأولي حيث قرأت (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْـــدُ مِنَ الْغَيِّ) وفي الثانية حيث قرأت (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ). فهمت أن ديننا قادر على أن يدافع عن نفســه، وهو بحق صـــالح لكل زمان ومكان، ويا ليته يقدم هكذا حقيقة، فالعولمة التي تدعي أنها آتية على الجميع من أجل ممارسـة الحرية، شـاء الجميع أو أبي، فهي لم ترتق إلى المســتوى القيمي الأخلاقي الذي يخاطب به ديننا العباد، إنها تود إكراه الجميع بما أنها معتمدة تعميم الأنموذج على من يشـــاء وعلى من لم يشـأ، وهو رفض للإكراه أسـاسًـا، ولذا هل من يكره الناس على الطاعة، كمن يحرضهم على ممارسة الحرية بإرادة!؟. ثم أكد هذا الأمر في مضمون الآيـة الثانيـة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) إذن فلمـاذا الإكراه؟ ولمـاذا عـدم احترام الآخرين؟. ولماذا الإصـــرار على معصـــية الله بإكراه الناس على ما لا يريدون؟. والله لو لم أكن مؤمنة لصحت بأعلى صوت: اتركونا، لقد سئمنا منكم ومن أساليبكم العرجاء

معك حق، إن الإكراه واتباع أســاليب السّــب للآخرين والتقليل من شأنهم أمر لا يقره الدين، وينهى عنه مصداقًا لقوله تعالى: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُـبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) فلا ينبغي أن يتم الخصـام مع الناس على ما يرضـيهم، على أن الله تعالى هو الذي يود هذا الأمر ولا يود ذاك، بل الذي يجب هو أن يتم التبيان بشـــفافية واعتبار وتفهم للآخر، دون أي مضـايقة أو تقليل من شـأنه، أو إكراهه أو سـبه إن لم يسـتجب لما تود، فمن أنت حتى تجيز إكراه الناس على ما لا يريدون والله يرفض ذلك؟ (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ). أمر الايمان اختياري، وهو الأمر

الذي يتماثل مع عقل الإنســان، ما يجعل للإرادة قيمة ومعنى، وللإنســانية تقدير بالاختيار، فالإنســـان المكره على فعل شـــيء هو في حقيقة الأمر مغلوب على أمره، وبالتالي لا يعد حرًا كما ينبغي أن يكون.

ولكن هل يترك الأمر هكذا (للبيت رب يحميه)؟.

بالتأكيد للبيت رب يحميه كما قال عبد المطلب، ولكن يقول الله اعملوا، فلنعمل على تقديم الفضـــائل بالحجة، ونعمل على تقديم الحجة بالمنطق، الذي يبعث الثقة في الآخرين ويحســـهم بأنهم على كفة الميزان مثلمًا نحن على الكفة ذاتها، وأن نعمل على مكانتنا بإعداد القوة التي تمكن الجميع من اكتســـاب الخيرات، وتفرج الكرب عن المكروبين، وتنير عقول المؤمنين بالعلوم النافعة، وتحرر الإنسان من الظلم والاستغلال والاستعباد. وسقط الحكومات الظالمة، وتضع الطغاة في أكياس القمامة وترمي بهم في المحيطات حيث الأسماك في انتظارهم.

عدنا إما تضيق بذكره الخواطر. هيا بنا نستعد للاحتفال.

أي احتفال؟.

الاحتفال بقدوم الليل.

مع أنه في علم الســـياســـة، لا يحتفل بالليل، إلا أنه في قواميس الســـويداء، تبتهج الأرواح والأنفس بقدومه، فهيا بنا لالتباســـه ثانية وثالثة، ولإيقاد الشموع، ولنسكن فيه طمأنة وأمنا.

هيا هات يديك كما قالت أم كلثوم ترتاح في لمســـتهم يدي، هات عينيك تسرح في دنيتهم عيني يا حبيبي تعالي.

بطبيعة الحال كانت أيادينا معًا قبل أن نفق ســويًا، وأنفاســنا تلاحق بعضـها البعض، كما تلاحق نبضـات قلبينا بعضـها البعض. كان القمر في ليلته الرابعة عشرة، والنجوم في دوائر تقدم لوحاتها الاستعراضـية. يا له من جمال رائع، ويا له من فن بديع، الموسيقا المصاحبة للعارضـات والكلام في

تناغم، خصــورهن والصــدور والســرور في تناغم، العيون لا تنام، وأنا في النفس أســري، مثلما تســري في نفســي الســارية، وكأن الليل برهة من نداء الفجر، قم يا حبيبي قد أتي وقت الصـــلاة. فالطهارة في النفوس، قم فالليل سـيخلع عنا لباسـه الذي أظهره علينا سـترة. يا له من ليل عظيم ويا لها من لوحات فنية رائعة، يصعب علينا فراقك أيها الليل الجميل.

سآتي إليكما غدًا ونأمل أن نراكما سعيدين كما تركتكما، وسأبسطكما أكثر مما بســـطتكما بـه الليلـة، وعلى فكرة لم أر مثليكما من قبل فأنتما الأوائل حتى الآن ويا ليتكما تكونان كذلك مع الســـيد المحترم الآتي إليكما من بعدي.

من يقصد بالسيد المحترم الآتي إلينا؟.

إنه السـيد النهار، الذي يبعث ابتسـامته فجرًا فتأتي إلى الطيور قبل أن تأتي إلينا، ثم يصـل شـروقًا في الصـباح، ليسـلخ ما تبقى من الليل من على أجســادنا، ولينير الدروب بين من لا يســتطيعون الصــبر عن اللقاء، ويظل الانتظار إلى أن تدق سـاعات العمل، وتأتي الظهيرة التي تسـتوجب السـكون في الفصـول السـاخنة، وتسـتوجب التبادل بين أطراف الحديث من خلف الزجاج على زخات المطر وهطوله في الفصـول الممطرة، التي تجعل المناخ لائقًا محفزًا على إيقاد الشموع في النهار.

(2)

هيا بنا إلى الطفو، لنستريح نزهة على المضمار العنبري.

أضـــبع القمر نصـــب عينيك كي لا يؤثر صـــعودنا على شـــبكات الاتصـــــال وعلوم التجريد والتجريب، ولكي لا نضـــــيع في مناطق الأغوار ومناطق العبور التي تزدحم بالمســـــافرين. ونحن في اتجاه القمة قررنا زيارة أســرة صـــاحبنا المتوســم الذي شـــاركنا التزلج حيث كان معنا في صـــدارة الفائزين، فكان الاستقبال بين الأشواق مدرسة لتعليم الرفعة الحسية، والذوق الرفيع، والحب اللبني. الترحاب والعناق الطويل كان ســـيدًا راقيًا لا يود أن ينفك في كل شعبة من هذه الشعب التخصصية، والتي كلما أنفككنا ازددنا تحفزًا لدخولها ثانية، ما جعل الأبواب مفتحة ترحابا بين الأشـــواق. زوجته نور وكأنها ولدت معنا معرفة، وكأننا معها ولدنا، الولدان يقدمون لنا أكوابًا من العســـل المصـــفى، واللبن اللذة، ثم ما تشـــتهيه الأنفس من كل ما لذ وطاب. استراحة تحت ظلال الأشجار ذات الثمار المتدلية بين الأيدي تقدم لوحاتها الاســتعراضــية كواعب أترابًا، فتثير الســحاب ليســقط المطر عليها حبات تبر تتزلج على نعومتها الزبدية، لتســتفز ما تبقى من مشــاعر تمكن المتوسمين من معرفة الخليفة.

هيا لا تترددا: من يقدم لكما نفســه تحية وتقديرًا فحيوه بأحســن منها أو ردوها تحية، وكأنها ثمار من ثمار الجنة، ما هذا العســل المســكي! وما هذا العطر الفواح! وما هذا الملمس الزبدي!.

لا تستغربا أنتما في جنانا أيها المتفرسون.

حان الوقت.

إلى أين؟.

إلى الطفو.

وما يقلكما عليه؟.

التنزه على المضمار التزامًا بموعد سابق.

ونحن أيضًا على موعد غدًا مع التنزه هناك. فما رأيكما أن تستريحا معنا إلى يوم غدٍ لنتنزه سويًا هناك.

ولكن قد نلاحق من قبل الالتزام إذا لم نكن هناك في الموعد.

هذا صحيح، ولكن بمكننا الاتصال بمركز المعلومات في التو لاستبدال موعد اليوم بموعد غدًا.

اتفقنا.

لقد تم تعديل الموعد.

كيف يتم بهذه السرعة وأنت لم تجر اتصالًا؟

لو لم أجره ما تغير.

بأية وسيلة هذه؟

بالنظر يتم كل شيء، وإلا نسيت ما قاله الذي عنده علم من الكتاب (أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك).

صدقت، وأعرف أنه قد أتى به، وأعرف أنها قد كشفت عن ساقيها وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين. وأنا في حديثي رمت حبيبتي بسهامها أوتارًا من ودي فقطعت بعضها وقطعت حديثي عن التي كشفت عن ساقيها. فابتسمت وأنا أكرر كلمة لا أقصد.. لا أقصد.

فقال المتفرس: ما بك.. ما أصابك؟!.

لقد رميت بنفس الوسيلة التي تم بها تعديل المواعيد وضبطها.

فنطقت حبيبته على الفور لقد تم رميه ودًا خاطئًا من ... وهي تمسح بيديها على كتفي حبيبتي وتقبل رأسها فعرف صاحبي بما رميت ومن رماني، وما ألم بحالي.

ضـــحك جماعي أعيدت فيه أوتار ودّي إلى الالتحام بعدما قطعتها السهام.

ما رأيكما في استراحة في أوبرا الشرق.

إذا كان الشرق الأوسط فلا.

ونحن أيضًا لا نفضل ذلك.

ولماذا أنتما كذلك!؟.

مكان ينقصــه الأنس والطمأنينة، وتهجره الحرية والشـفافية، وتتسـع فيه أكياس الحكومة. وتتكدس فيه أكوام القمامة.

إذن إلى أين؟.

إلى المرعى، حيث ترتع ذات الملمس الحريري، والصـــوت الرخم، وحيث تتغزّل الصبايا مع المُغزل.

أحذرك قبل أن تفاجئك السهام كما فاجأتني.

كل شيء متوقّع.

هيا بنا للاسـتراحة حيث يتماثل ملمس شـعرها مع زبدية لبنها نعومة بين يـدي الراعي، وعلى المغزل حرير، كلمـا يـدار بين أكف الصـــبـايـا وعضـــلات ســيقانهن يغزل زغبهن حريرًا مع الحرير، ليروي قصـــة وطن، ترسم الفجر بين شفاه الصـبيان، مقدمة لشـروق الشـمس في نفوسـهن، ومع كل صباح شعرها الذهبي نزهة يتفتح في العيون.

صـــوتهـا أذان فجرٍ في آذان المؤمنين: قـاوموا ســـلبيـة للغـازين، والبضائع قاطعوها منتجين.

لا تردد أنت أمِ، لبنك يســـري في دمنـا قوة منـاعـة، ثقي لا نخـاف فأمري.

اخرجوا على بكرة أبيكم.

اكتظت الشوارع والميادين، عطلت الحركة، أنشودة الراعي تغني.

صـدور المسـتعمرين تملأها الرهبة. اتصـالات تجري مع الإدارة في بريطانيا. الأمر على أشده، نحن في خطر.

أبلغونا من المحرض؟.

العنزة.

عنزة من؟.

عنزة الراعي.

اذبحوها بلا تردد.

معذرة، عنزة الراعي في كل بيت، لبنها يسـري في عروق الصـغار والكبار.

السـفارات الأجنبية تبرق خبرًا عاجلًا لبلدانها: العنزة تعلن التحدي وترهب العسكريين الإنجليز المتواجدين على المرعى.

التقدير للعنزة، تسـتحق أن يكون لها تمثال يخلّدها. اكتبوا لراعيها الاعتراف به وبها.

ذهب البعض قبل البعض إلى منزل الراعي، فوجدوه نسّـاجًا ماهرًا، وحيّاكًا بارعًا، ومتحدثًا لبقًا بلغة القانون.

حكوماتنا تقدر جهودكم، وتعترف بك وبها.

تقصدون زوجتي العزيزة.

نظر البعض إلى البعض، وإذا بها تصـيح، وكأنها تسـتمع إليهم، فتجيب. والإجابات مع ازدحام الابتسامات: عنزتك المباركة.

إنها تسـري في دمي، وفؤادي يتغنى بها وبالمغزل، ثم ترك المغزل جانبًا، وأخذ الفنجان بين يديه، إلى أن وضـعه تحت ضـرعها ومسـك المحلبين حتى فاض الفنجان، وشرب الجميع.

ما هذا اللبن الدافئ!!. وما هذا اللين الذي يتخلله!!؟.

تفضلوا بالجلوس.

حصيرة صغيرة، وأعضاء السفارات الأجنبية كأنهم تلاميذ متراصدون أمام معلم.

يتحدث الراعي عن حبيبته الجميلة، ذات الشـــعر الذهبي، والملمس الحريري، والصـــوت الأنثوي، والعلاقة الغرامية بينها وبينه، والحصـــيرة والمغزل. كل شـيء من بلادي عبادة، ولهذا أتغنى بها وأصـوم من أجلها، وأحرض الناس.

نحن نمد أيدي المســاعدة. ويا ليتك تأذن لنا بتصـــميم وبناء تمثال يخلدها.

التماثيل والأصـنام لغة غير المسـتنيرين، وسـيأتي اليوم الذي تتحطّم فيه كل التماثيل كما تحطّمت فيه الأصـــنام على يدي أبي الأنبياء في الرسالات السماوية. ولو كنتم تعرفون قيمة العنزة أيها السادة لعرفتم أن قيمة التمثال لا تليق بها، التماثيل لا تجسـد القيم ولكنها تجسـد الأجسـاد التي بالضرورة ستنخرها الديدان إلى النهاية، ولذا فالأجساد المنتهية لا ينبغي أن تخلد. القضـــايا العظيمة أيها الســادة المحترمون ذات معنى وليســت ذات صـورة، والمعاني النبيلة والقيم الخالدة لا تُرسم ولا تصـوّر وليس لها شـكل، ومع ذلـك يكون لهـا أثر عظيم؛ ولهـذا تبقى خـالـدة، ويجـب أن تخلـد في سـجلات التاريخ (الملك العام)، ويجب أن تلحّن الأناشـيد من أجلها، وتغني الأغاني، وتقام الاحتفالات إحياء لذكراها.

بعد ســاعة متأخرة من الليل عاد أعضــاء الســلك الدبلوماســي إلى سفاراتهم ومندوبياتهم، وبقي الراعي متمددًا على حصيرته الديسية يتأمل في النجوم المتلألئة وكأن حديثًا بينهما لا ينقطع، إلى أن صـــاحت المبهجة له مع الفجر، فأسرع بالنهوض حيث كان ينتظر الصباح ليقود حركة العصيان

المدني، التي اكتظت بها الميادين، والمناشـــير توزع، وبالخط كتب على الجدران: (ارحل أيها الغازي خير لك من أن ترحل)، هكذا كانت الهتافات تدوي برحيل المستعمر، وصوت العنزة يسند الراعي من كل مكان حيث كان الصـــدام عنيفًا بين عصـــاه وخوذة المســـتعمر. إنها الأيام المريرة من عام 1922، حيث قبض على الراعي بالقوة، وحكم عليه بالسجن ست سنوات، ولكن كان للحب كلمة، فصـــوت الحبيبة المبهج للحبيب كان دويه مزعجًا ومرهبًا ومرعبًا للعدو: (أطلقوا حبيبي وإلا ســـتكون رؤوســـكم في المرمى). ابتسـامة عريضـة تمتد من وسـط السـجن غصـبًا عن الجدران والقيود لتقبل الحبيبة التي أطرب دوي صـوتها نفس الراعي، وبعث في روحه الأمل، وفي نفوس الغاصبين رهبة.

صداع شديد من الخوف الذي جعل الفراق سيدًا بين عيونهم والنوم.

لن أصمت حتى يطلق سراحه، أو تنفجر رؤوسكم من الصداع.

بعد عامين، نفد الصـبر على الصـداع، أطلق سـراحه عام 1924م قبل نفاد المدة بأربع ســـنوات. عناق طويل ودموع الفرحة نزهة على خدي الحبيبة.

كفكفي دموعك يا غالية، فالدموع التي تعبر عن الفرحة والألم هي ذخيرة عظمى، أريدها في المخازن، فيوم أن أحتاجها ســـتكون البحر الذي تغرق فيه ســـفن الأعداء وناقلات جنوده. احفظيها في مخازنها الجميلة، حتى لا يظن الأعداء بأنها الدموع الخائفة. الباكون أقدامهم مرتعشـــة فلا يســـتطيعون الصـــمود واقفين بثبات، ولذا فهم لا يصـــنعون التاريخ، ولا يسـاهمون في صـناعته. هيا بنا إلى مسـيرة الملح، لنأكل من أيدينا ونقاطع المسـتورد منه، لما سـمعت العنزة (هيا بنا إلى مسـيرة الملح) صـاحت لبيك أيها الراعي لبيك، لبيك إلى مسيرة الملح، فليسقط الإنجليز.

حشـود تجمعها الحشـود تجمع الملح وتعدم المسـتورد منه، وبأعلى الأصوات (ارحل أيها المستعمر وإلا..)

اتفاق الهدنة لم يستمر طويلًا، فكان عام 1940م عام فراقه، يوم أن أعلنت المملكة المتحدة لجيوش المحور أن دولة الراعي محاربة مع أنها لم تستقل بعد، حاول المحتل أن يفاوض الراعي وصوت عنزه، فكان الرد (اتركوا المرعى وأنتم أسياد).

رفض المستعمر هذا الصوت، واقتيد الراعي إلى السجن، والصوت يعلو، لبيك إلى أن تشرق الشمس، صداع المغتصب يشتد، إلى أن أفرج عن الراعي عام الحزن 1944م. حزن الراعي على طرح المحتلين لفكرة تقسيم المرعى إلى جزئين. ولأول مرة تصيح العنزة معه بحزن وألم شديد، فقال: صبرًا لقد ألمت بنا الكارثة. فلسفة المستعمر أيتها الحبيبة (فرق تسد)، وفلسفتنا (وحد نسد) ولذا لن نلتقي. ثقي أن لبنك يسري دمًا في عروق أبنائنا.

لو كان كما تقول لما كانت الكارثة التي ألمت بنا.

المستعمر لا يمكن أن يوافق على وحدة المرعى، لهذا يصر على تجزئته، ولكن قوة لبنك ستكون في جينات أحفادنا حتى ولو جزؤونا.

وكأنك متأكد من تنفيذ قرار الحزن!.

للأسف، نعم.

ما العمل؟.

والحزن يملأ نفسه: الرحيل حتى ولو جزؤونا. خرج غاضبًا ومسيرات الغضب تلتحم به. لبيك... إلى أين؟.. لبيك.

إلى حرق الملابس والمنسوجات المستوردة، وإلى تحرير الاقتصاد الوطني.

أسرع المواطنون تجارهم وغزالوهم وأكوام الملابس والمنسوجات المستوردة فوق رؤوسهم لبيك... إلى أين؟... لبيك.

إلى الســـاحات العامة لتحرق أمام أعينهم أيها الأحباء. ثم نعود إلى العمل لنغزل وننسج ونحيك ملابسنا بأيدينا.

خصص الراعي أربع ساعات من يومه لمغازلة المغزل، حتى أصبح المغزل يرقص بين يديه شـعارًا لمقاطعة المنتجات الأجنبية. ليس لديه وقت لحلق ذقنه بشفرة بريطانية، وقبل بالانشغال عنه إلى أن توصلت أم الشعر الحريري إلى صناعة الشفرات.

يا إلهي لســـان حال الراعي، حال العنزة: أنا الوطن، أنا الحرية، أنا العدالة الاجتماعية، أنا الشعب. ولسان حال رب التمثال: أنا كل شيء.

إذن أنت الآن عرفت أنا لا تساوي أنا.

ولن...

لهذه المسوغات سجل التاريخ ما قاله الشعب للراعي.

ماذا قال؟.

قال له: نحن أنت.

تأكيدًا لذلك، شهدت أثناء سفري إلى بلاد العنزة، احتفالاتها الضخمة بيوم (5/ 10/ 2002) الذكرى 133 لميلاد البطل (نحن أنت). ولن ننسى لوحات العروض التي قدمت تخليدًا لذكراه، وخاصة تلك اللوحة التي تشكلت من 133 طفلًا وطفلة وهم يرتدون الملابس المتشابهة مع ملابس صاحب الذكرى، ويتغنون ويرقصون عرفانًا (بالنحن) والفتيات ذوات الشعر الأسود المتمرد على أردافهن وعلى السبيل، تحيطهن في دائرة جميلة تتداخل معها دوائر وكأنها زهرات عباد شمس. وعندما تنشق البسمة يرتسم القمر بين ثغورهن الوردية التي تهدي المبحرين مع إيقاعات الموســـيقا الهادئة إلى شـــواطئ الأمان، لترســـو مراكبهم، وليســـتمر الحوار صـــمتًا بينهن وبين المشاهدين الذين كانوا في حفلات التنزه على المراكب، ومع صعود الإيقاع على الســـلم الموســـيقي، وتخفيف الإضـــاءة على لوحة العرض، بالخط

العريض كتب في السماء بفرقعات أضواء التنوير (نحن أنت)، هتاف يدوي بقراءة جهرية لما كتب في السماء، وبعد قليل أنيرت الأضواء كما كانت وإذا بالشعر الزنبقي مع رقصة الموجة يسبح مع الهواء، تصفيق حار إلى أن عاد في سكينة ليلامس خصورهن ويتجاوز الأرداف، لاحظت حوارًا بلغة العيون يسعى لطي المسافة بيننا والعارضات، وأحسست أننا سويًا نلامس القمر ونحن على قمم الذوق الرفيع، حتى أوقدت الشموع في كل خلية من خلايانا إعلانًا عن وحدة وطن، فلماذا لا توقد الشموع في مدننا لنتحد في الوطن ونعلن الحب ل(النحن)!؟.

لا تعمم السيئات، هناك من الحسنات ما يفرح، مع أن عصر العولمة لا يقبل التمسك بالعنزة والتغني بحلاوة لبنها، إلا أنه لا يقبل أيضًا بأرباب التماثيل، الذين يتربعون على العروش كرهًا، ولا يقبل بهم حتى طوعًا أكثر من فترتين.

وما رأي العولمة في الشريعة؟

(لكم دينكم ولي دين).

إذن ما العيب فيها؟.

تعميم السيارة ليكساس على حساب شجرة الزيتون.

يا ليتها تقبل برحلة النحن (أنا وأنت وهي وهو) في السيارة ليكساس وبالتنزه تحت ظلال أشجار الزيتون الجميلة، لنرتع سويًا على ضوء القمر ومع كل إشراقة شمس.

أحبك يا أل(نحن) ويا ليتني كنت شاعرًا لأقرضك شعرًا، كما قرض أهل المرعى الشعر في العنزة، التي تسري مكونات لبنها في دمهم، كما كان يجول في دم الرعي، الذي نزف على المرعى يوم أن فتك به ذئب من غابات الهندوس فأرداه قتيلًا.

غيم كثيف وظلمة لا تســـمح برؤية النجوم، فيضـــانات من الدموع عندما فتحت المخازن بمفاتيح العاطفة، كادت أن تغرق المرعى، لو لم يلح قوس قزح ويرســـم في الأعالي الراعي رســـول الســـلام الذي لن يموت من سجلات التاريخ إلى النهاية.

مفارقات هناك من يلوح قوس قزح من أجل ذكراه وتمطر الســـماء، وهناك من تجف الشفاه والأنهار من ذكر اسمه.

اللعنة على التمثال وربه، والحب كل الحب للعنزة وراعيها.

لقد صـــــدقت. اللعنة على التمثال وربه، والحب كل الحب للعنزة وراعيها. العنزة طردت جيوش المســتعمرين من بلاد الهند، والتمثال أتي بهم إلى بلاد الرافدين، الراعي والعنزة في ذاكرة الشعب سلام، والتمثال والرب في الذاكرة قمع وبطش وإرهاب.

الراعي ذكراه تخلد، ومقابر الرب ترعب. هند تُرحم على من روتها بحلو المذاق وفرشتها بحرير ظهرها ومن أديمها لبست النعال. ولعنات بنت النهرين تلاحق الرب وتزغرد على تحطيم التمثال.

من هي ذات الشعر الذهبي التي تتغنى عليها؟.

قبل أن أنظر إلى من وضـــع راحتي كفيه على كتفي، شـــعرت بقوة تسري في بدني وتخترقني، بالطبيعة لامست يديه ثم بصرت، فإذا بالسماء تضـع القمر في وجهي، فقلت في نفسـي ما قاله يونس عليه السـلام (أن لا إله إلا أنت سـبحانك اني كنت من الظالمين). فضـاعت من ذهني الكلمات التي تنطق، وملأتني علامات الاســـتغراب، القمر بين يدي من يصـــدق! وزغاريد النجوم فرحة، والدموع فرحة على خدي أم مؤيد، تمحو من الذاكرة ما نطق به اللسان احتجاجًا على أم الشعر الذهبي. ضـحك وتوادد، السلام كلما تكرر رحيقه ازداد حلاوة، نظراتنا بين عيوننا تجتذبنا وتلف بعضـنا إلى

بعض، وكلما اعتقد أحدنا أنه في حاجة إلى شـــحنة عناق تمكن، وكلما انفصلنا تعانق الشوق في نظراتنا ودًا.

كيف حال قبس ومؤيد يا أم مؤيد؟.

بخير.

كيف حالك أنت يا أبا مؤيد؟.

بخير.

غياب لا يطاق.

ها قد عدنا.

أتتذكرين آخر مشهد كنا نحضره سويًا في البستان الحلم.

وداع انسلخ فيه النهار من الليل، ودموع فرحة.

نعم وداع انسلخ فيه النهار من الليل فإذا هو مبصر، يوم أن أسلمت الأســـرة البوذية لله تعالى، فكان البكاء فرحة. وكان الخطيب في خطبته نزهة، قطف لنا من ثمار الجنة ما لذ فيها وطاب، وقدم لنا وللحاضـــرين باقات الورد الزعفراني، ورياحين المسـك الممزوجة برياحين العنبر. ما جعل لغة المحتجين تتبدل لغة مؤيدين، وأفراد الأسـرة يندمجون في أسـرتهم الأم، وتماثيل المســـتنير تحفظ في ذاكرة التاريخ بعد أن وضـــعت في المتاحف الراقية، تخليدًا لمن بذل جهده وقضـــى معظم حياته يتنقل داعية لفعل الخير وعاملًا عليه.

أنا أحس بتشـابه كبير بين ذلك اليوم ويومنا هذا. أحس وكأن النهار ينســـلخ مرة ثانية من ليله الذي انســـلخ منه في ذلك اليوم، وأحس بكلماتك وكأنها ثمار من ثمار الجنة، تطمئن النفس، وتعيد إليها الحياة، وتفتح أبواب البصيرة لتسترجع الذكريات التي حفظت في فؤادي.

اتفق معك كل الاتفاق، وحتى لا يضيع الوقت هيا بنا لنوقد الشموع على قمم جبال الحب، ومن بعدها نتبعثر على السفوح، ونرسم لوحة بشفاهنا دون أن ننطق بكلمة تكون شاهدة علينا، ولتبقى بصمات الود صرحًا شامخًا في سجلات البحث الجنائي، ولتبقي في فؤادي ساكنة في النمو، وأنا أنمو في فؤادك ساكنًا. مهما تشتد الرياح سنبقى ثابتين، مهما تشتد الثلوج سنبقى ذائبين، مهما تشتد الحرارة في ظلال، ونسيم البحر يفترش الأمواج في امتداد نحونا.

يبدو أنك قد تبعثرت في كما أنا تبعثرت فيك.

اعتقد أنني أكثر تبعثرًا منك.

صدقني أنا أكثر. أنا انتشر فيك من رأسك حتى قدميك، وأنت تغزوني من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. جئتك من غربي المدينة غازية فغزوتني، أسألك إربًا إربًا لا تقطعني، اتركني كيف أتيت إليك اتركني، في البحر اللجي تائهة اتركني، أسبح أرتع أزرع أحصد اتركني. تائهة بين الصدفات، بين اللؤلؤ والمرجان، بين الرخوات اتركني. مع اللون الشفقي اتركني، في البرزخ يروي ظمئي، يشفى غلي، اتركني. أمواج زاحفة بين المد والجزر، الحب فيك معتكف إن يسمعني؟ فأنا السارية في النبع اتركني، سارية على قمم الجبل. طلب فيه ودي، فيه سمعي، فيه بصري، ارحمني.

في أعماقي أنت على قمم الجبل، سارية تعلو بصري، شعرك يسري مثل الراية مع النسمات، ثم يسدل فوق الصدر، أقف أنشد يحيا وطني، حتى تأتيني النبضات تهمس، أنت عمري، يصرخ صدري بالآهات مثل الطفل، يعلن سري.

عناق يحاصر القبلات وكأننا نضيدتان في حالة شحن، توقف الحديث ولم تبق إلا اللجلجة شاهدًا على طوي المسافات، حتى إن تزلزلت الأرض، وانقطعت الكهرباء. اتصالات يتم على ضوئها إعادة الكهرباء إلى

المفاتيح أولًا بأول، استئناف يتم فيه شحن النضيدتين، فكانت الكلمة في زمن الاستراحة قبلة. حان وقت تأدية الواجبات الوطنية، هيا بنا إلى العمل.

لحظة من فضلك.

إلى أين؟.

إلى المرآة. ثم تذكرت، قل لي: من تقصد بأم الشعر الذهبي تلك، ذات الملمس الحريري، والصوت الندي؟.

لها مني كل التقدير والاحترام.

يا إلهي احترمني.

أنت محل لكل تقدير واحترام.

لا تأخذني بلسانك.

حريرية الملمس، جميلة المظهر، أم الشعر الذهبي والصوت الندي..

أرجوك لا أريد أن أسمع.

لا تغضبي أعني العنزة.

وما دخل العنزة فيما قلته من حديث غزلي؟.

عليك بقراءة ما كتبت.

سامحني، هذا الأمر لا أستطيع أن أتمالك نفسي فيه.

ولكن أين الثقة التي اعتمدناها موثقًا بيننا؟.

أعرف أن الثقة تشيد من الود قصورًا وناطحات سحاب، وأعرف أن الشك هو الكفيل بهدها إذا ما عشش في أركانها أو بين الجدران. سامحني أنا مخطئة سامحني.

على كل حال العنزة قضية وطنية، حملت المغزل شعلة أنارت كل بيت من بيوت الهندوس والبوذيين والمسلمين، والكنفوشيين، ومكنت المرأة

من المشاركة في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بعدما كانت محرومة من ممارسة حقوقها وواجباتها ومسؤولياتها، فأصبحت في عهد الراعي شريكًا أساسيًا في كل قضية.

فالعنزة قاومت المستعمرين، حررت البلاد، سجلت في نفس الراعي آية، صوتها يسري في نفسه كما يسري في نفوس الرعية، وفي آذان المستعمرين كان صوتها رعدًا تتبعه العواصف، والهزات الأرضية، غيومًا تلاحقها الغيوم، رعودًا وصواعق، إلى أن تم الرحيل.

الأعراس في كل الميادين والشوارع، ساعة الزمن تسجل، أشرطة مسموعة ومرئية، التعليم على الحصائر، وحليب ذات الملمس الحريري غذاء لكل الأعمار. الخريجون في ازدياد، ومع الهجرة رحيل ووداع، ومع العلم تقدم، وقوانين السلام في رؤوس عابرة للحدود، في تنافس بين العنزة وابنتها، التي أحزنت الراعي يوم انفصالها عن الأم بغير إرادة.

توقعات الراعي كانت ذات مصادق، يوم أن كتب عليه الانفصال كرهًا بين العنزة وابنتها، قال: انفصال الابنة عن أمها بالقوة يدمي قلوبنا، وبما أنه لا خيار لنا إلا أن نختار أحد الأمرين فقبلنا بالانفصال في مقابل الرحيل. ومع أنه يؤلمني كثيرًا، إلا أننا واثقون من أن الابنة الصغرى ستكون أما لا محالة وستكون قادرة على التحمل والتحدي الذي يجعلها في سوق المنافسة الحرة قادرة على تسجيل أرقام قياسية في الزمن غير المتوقع.

ما رأيكم؟.

لقد أجدت الاختيار، وإنها بحق أوبرا الشرق الذي فيه التاريخ يصنع صناعة، والحرية فيه تنتزع انتزاعًا.

(3)

ونحن على سلالم الخروج المتحركة بالإرادة، انبهرنا بتلك الأضواء، وبذلك الازدحام، من جانبنا ومن أسفلنا، وما يعلونا. آلاف المصاعد المحمولة بقانون الطفو، وما يماثلها بقانون الغوص. المتنزهون أفواههم بالتماثل مشرقة بالتحية المتبادلة.

كانت الاستراحة في انتظارنا: مرحبًا بكم، أنتم في المقهى الدوار في البرج الدوار، أنتم هنا على المقربة تتوسطون الجموع التي تحيطكم في دائرة السلام، وهناك أنتم تنظرون إليها في حركة طفو أو غوص، ونحن نستمع الحديث سقطت أم مؤيد على السطح.

ما بك.. ما أصابك؟.

دوران !!.

وألسنتنا استغرابًا متأهبة لتكرار الكلمة (دوران) التي نطقت بها أم مؤيد أثناء السقوط، كانت أم مؤيد في عيني الطبيبة المتمكنة في عيني، تحت الكشف الفائق الذي أمدها بالصحوة وزودها بالمناعة.

ما بها يا دكتورة؟.

كما تعلمون أيها السادة الكرام أنتم في مقهى المتفرِّسين، الذين يمتلكون قوة الاختراق ما جعل سهام أحدهم تنفذ في عيني أم مؤيد فتصيب ثلاثة أوتار من شعيرات الفطنة والزهو.

وما الحل؟.

كل شيء عاد إلى طبيعته بعد الإصلاح.

كيف حالك يا حبيبتي؟.

بخير. دوران وأزيح.

لو سمحت يا دكتورة في ذهني توقع دوراني.

انظر إلى عيني. معك حق هناك توقع.

ما سببه يا دكتورة؟.

سببه دوران رأس أم مؤيد في المقهى الدوار في البرج الدوار.

هذا صحيح فأنا الآن شفيت من التوقع الدوراني.

الاستراحة الحسناء لا زالت معنا، تمسك بيدي أم مؤيد وترحب بنا تفضلوا بالجلوس، وتفضلوا كل شيء من الطبيعة وعليها يقدم. لدينا عصائر الرمان الزعترية، وعصائر المانجو الإكليلية، وعصائر العنب المسكية، ولدينا رطب عرائسي، ولحم طير سلطاني، وأسماك قزحية.

فكانت الإجابة على رأس البنت الشهية قبل أن تجيب ألسنتنا نريدها كلها. وكأنها حال طفل عندما يرى الألعاب يريد أن يمتلكها دون أن يستثني واحدة منها.

إنه مقهى التفضيلات، كل شيء هو أفضل من الأفضل. فأنا بلغت من العمر ستين حولًا في هذا المقهى فلم استطع أن أفضل بين الأفضل والأفضل حتى الآن.

على الفور همست في أذن مضيفنا العزيز: كنت أعتقد أن عمرها لا يتجاوز الثامنة عشر، وهي تقول أن سنوات العمل بهذا المقهى فقط ستون حولًا.

لا تستغرب من يجد له فرصة عمل في أعماق السويداء، سيضل حاله كحالها.

يا ليتني أجد فرصة.

شربنا من حلو المذاق، وأكلنا من لحم طير، وتفكهنا بالرطب العرائسي.

ما رأيكما أن نعود إلى البيت أم ترغبان في اســـتراحة قبل العودة، نحن لا نريد أن ننام خذنا إلى حيث ما تشاء.

إذن هيا بنا إلى رؤية التمثال، الذي قاوم الغزاة إلى أن استشهد.

تمثال يقاوم الغزاة ويستشهد!!.

نعم.

وما قصة هذا التمثال.

كان حلمًا في ذاكرة الرب، فأصـبح رؤية. وُصِـف للرسـامين فشـكل على هيئة الرب، البطانة في احتفالاتها تتغنى بالمولود الجديد، لما فيه من صـــفات وخصـــائص الجمال قبل أن تراه، شـــركات المعارف تتنافس على العطاء لبنائه، فكان لذوي القربى مكرمة في النظرية الأمنية، الحاصلة على جائزة هتلر للســـلام والبناء. دون تحيز تم العطاء بالتكليف المباشـــر، والمشادات بين أصحاب المكرمة.

ينبغي أن تكون يداه في جانبيه.

لا، ينبغي أن تكون إحدى يديه مرفوعة كما وصـــفت في الرؤية الهتلرية.

عيناه ينبغي أن تكونا واسعتين، ومن الذهب الخالص.

أتفق معك على اتســـاع عينيه، ولا أتفق معك على أن تكونا من الذهب الخالص.

وكأنك تود أن تقول الرب لا يستحق كل هذا.

اســتغفر الله، كنت أود أن أقول يجب أن تكونا من الماس الخالص. وأن تكونا ســوداوين لتظهر الوجاهة العربية الأصــيلة، ولتحافظ على نوعه من الانقراض.

الرب يجب أن تكون عيناه عسليتين، لتنسجم مع الخلطة الماسية التي حضاه بها الخالق.

التقارير أولًا بأول. استدعاءات، يصدر فيها الحكم بالإعدام رميًا بالرصاص على من اعترض على الذهب الخالص، وتكريم من يرى أن تكون من خالص الماس. طلب من الجنود أن ينفذوا في الأول، ويسلموا جثمانه لأسرته الكريمة، ثم يتم تكريم الثاني أمام أفراد أسرته.

نفذ حكم الإعدام، سلم الجثمان للأسرة. صراخ، إغماءات، والعبرات تختنق مع الأنفاس. التقارير على ردود الأفعال تبرق أول بأول. الأوامر الفورية كانت استجابات حاسمة الترسيخ المحبة مع الرعية، وإظهار حسن النوايا، تعليمات تعطي للمنفذين بممارسة الحرية التامة مع جميع أفراد الأسرة المتأثرين.

يتم بموجبها إصدار وتنفيذ حكم الموت على الذين صرحوا بصوت مرتفع، والذين اختنقت عبراتهم في صدورهم، وكذلك النسوة اللاتي أغمي عليه. التقارير والاتصالات الهاتفية لم تترك شاردة ولا واردة إلا وبالغت فيها تقربًا للرب ولبطانته.

جاءت لجنة التكريم المكلفة بقرار رئاسي إلى منزل أسرة المفكر الذي طالب بأن تكون عينا التمثال من الماس، فلم تجد إلا الجثث في بحيرة من الدم، المكالمات الهاتفية مكثفة مع غرف العمليات.

يطلب دفن الجثث في قبر جماعي، ثم تكتب براءة التكريم على الرخام وتوضع على القبر، ليكون شاهدا على قبور من كرمتهم الحكومة.

أحد الجيران قفل باب منزله بقوة عندما رأى سيارات لجنة التكريم تقف أمام منزل من تم تكريمهم رميًا... خالصًا لوجه الله.

فكان الحكم أن يسوى المسكن على جميع أفراده الثمانية، وفي حالة وجود زائرين معهم فلكل مفردة منهم درجة على مقياس رختر للهزات الأرضية.

نشرات الأخبار والصحف المحلية تنشر، هزة أرضية بقوة ثمانية درجات زائد ثلاثة درجات على مقياس رختر تهز مسكن المواطن (ثعيلب بن قطيط الخريف الأسترالي) وتدمره على بكرة أبيه، وعلى جميع الجيران أخذ الحيطة والحذر، فمن المتوقع أن تتكرر الهزة الأرضية أكثر من مرة في غضون الأربعة والعشرين ساعة المقبلة، إنه ليؤسف الحكومة على تزايد عدد الهزات وفقدانها السيطرة عليها.

الرب يزور المقابر الجماعية ليتأكد بما لا يدعو مجالًا للشك قد تم التنفيذ دون أي تقصير من قبل الحكومة التي تبدل الرخيص والغالي في سبيل استقرار الأمن. الأخبار والصحف تنشر الرب يقرأ سورة الفاتحة ترحمًا على ضحايا مقياس رختر.

اللجان المكلفة بمتابعة الإنجاز الوطني العظيم وتنفيذه، اتفقت أن يكون الهيكل العظمي للتمثال من العاج، الأمعاء من الحرير، الجلد من سويداء الإسفنج، والحذاء جلد غزال يرصّع باللؤلؤ والمرجان الصيني، أما القبعة فأمريكية، والسيجارة هافانية. عرض المشروع على الرب. يعتمد على أن تستبدل القبعة الأمريكية بإسبانية، ويضاف النطاق الروسي للمؤازرة.

المصرف المركزي يحيل المبالغ الكافية لاستيراد المواد اللازمة للإنشاء بحيث يكون التنفيذ محلي المنشأ. بدأ التنفيذ، والإنجاز كان في وقت قياسي، الاحتفالات تعم المدن فرحة بالإنجاز الوطني العظيم.

بعد أعوام كتبت المعركة، اختفت النعامة في بحر الرمال، تولى التمثال زمام الأمر، فكان قائدًا صلبًا، أصدر أوامره للمقاتلين: أثبتوا، لا تولوهم الأدبار، واقتلوهم حيث ثقفتموهم، قاوموا دون خوف وبلا تردد، تكتب لكم الشهادة على تراب الوطن، وتكتب لكم الحياة في السماوات العلى.

يأتي الصوت من الخلف صاعقة، أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. على الرغم من ذلك كان التمثال زعيما في المواجهة، فلم يستسلم للدبابات الغازية التي طوقته من جميع الجهات، ولا للمقاتلين الذين طوقوه بالحراب الموجهة لصدره. بقي صامدًا في الميدان إلى أن تم أسره، ونفذ حكم الإعدام فيه شنقًا وتم التمثيل بجثمانه، فكان شاهدًا على فترة من التاريخ..

في الوقت الذي تجرُّ فيه رفاته وتضرب بالنعال، هناك من سعى إلى سرقة بعض الأعضاء منه كغنيمة من غنائم الحرب، وحدثت مشادات بين البعض على الفوز بأكبر نصيب ممكن حيث مكوناته الثمينة، من الأحجار الكريمة من لؤلؤ ومرجان وذهب وماس وحرير طبيعي. الجميع تفاجأ، كل شيء من الأسمنت والطين البلدي، الكل يضحك على الكل، أين مبالغ تلك العقود التي أبرمت!؟ أين تلك المبالغ التي حولت إلى الخارج بحجة أكبر من الذنب!؟

كلمة حق تقال: يوم أن تولت الأدبار ووضعت النعامة رأسها في التراب، وتمت اللعبة كما قال السيد الدوري مندوب العراق في الأمم المتحدة، لم يبق في الميدان غير التمثال صامدا. قبل بالمواجهة مع المستعمرين والغاضبين، ثبت ولم يتزحزح قيد أنملة إلى الوراء، سقط في الميدان على وجهه شهيدًا مع أنه لم ينطق بالشهادة.

يا إلهي، تاريخ تملؤه العبر، وتاريخ يختنق بالعبرة.

لم أفهم.

العبر من العنزة والمغزل، والعبرة تملئ الصدور ممن يرمز له بالتمثال.

اذكروا موتاكم بالرحمة.

معك حق: الرحمة على الموتى الأبرار الذين لا زالت الأغلال والقيود شاهدًا على جرائم الطاغية تكبل أعناقهم وأيديهم، وهم في القبور، الرحمة

على من صعدت أرواحهم إلى السماء، لتكون شاهدا على من فصل بينها وبين أجسادها كرها، والرحمة على من كشف العظام وهي رميم. ولتبقى اللعنة تلاحق الملاحقين. وليشفي الغل من الصدور.

لا تنس أن ترحّم على الشهداء والموتى في مقابر الوطن الذين لم يحن بعد الإعلان عنهم، وتذكر إن كان لك قريب واستشهد في سبيله بالطريقة الصدامية ستجد رفات هويته الشخصية مع رفات جسده دليلًا على رحمة الحكومة بالعباد وممتلكاتهم. وأوصيك أوصيك باصطحاب ما يثبت هويتك لكي يتم التعرف على رفاتك إذا ما استشهدت فجأة وأنت مار في السبيل.

والأبناء كيف يكون حالهم قبل سن الحصول على أوراق إثبات الهوية إذا ما تم استشهاد أحدهم فجأة في غير سبيل.

خذ حذرك.

كيف أخذ حذري والحاجة تتطلب أن يكونوا طوال اليوم في السبيل؟

عليك بمعرفة ملابسهم وأحذيتهم، وأن تترك كل يوم في جيوبهم عملة معدنية أو أن تضع في آذانهم أقراطًا، تخصهم بأرقام تدلك عليهم.

حتى الأولاد أخصهم بما تختص به أخواتهم وكأنه لا فرق بينهم في الخلقة!!

للضرورة أحكام، والمواطنون في بلدان الطغاة لا يميزون بينهم إلا بالأرقام حالهم كحال السيارات (أرقام على لوحات معدنية).

كل شيء متوقع. المتوقع لا يخيف. الذي يخيف غير المتوقع؛ ولهذا كن حذرًا.

بما أن هناك حكومة ظالمة مهما تكن حذرًا ستفاجأ، ولذا أوكل أمري وأمرك وأسرتي وأسرتك إلى الله تعالى. وفي مقابل ذلك أيضًا مهما تحترز الحكومة وتتخذ من احتياطات ستفاجأ بغير المتوقع في الزمان أو المكان أو الموضوع. أمريكا على سبيل المثال لم يفاجئها المتوقع، بل الذي فاجأها هو

غير المتوقع، فالمفاجئة دائمًا كالظل للجسم لا تفارق غير المتوقع، الذي به مر مبنى التجارة العالمية، وهدت به أركان البنتاجون، وبه أصبحت أقوى دولة في العالم في حالة من الرعب. بالمتوقع تتمكن من أخذ الحذر والحيطة وقد تتمكن من تفادي العواقب الخطرة، وبه ترسم الخطط ويصنع المستقبل، وبدونه تحدث المفاجئات.

ولماذا لا نحرص على المتوقع لكي لا نترك شاردة ولا واردة إلا كان لنا بها علم.

لن تستطيعوا ولو حرصتم

إذن لا مفر من المفاجئة القاسمة.

لن تقنط من رحمة الله.

وكأنك تود أن تقول لي شعارًا جديدًا للمقاومة السلبية، ليقال عنك غاندي العولمة.

المقاومة السلبية عمل، فإذا عملتم نلتم، ولهذا عمل الراعي بالعنزة والمغزل والقيم الرفيعة إلى أن نال. ومن يعمل يحصد ولكن ماذا يحصد؟!

بالتأكيد يحصد ما زرع. ولذا حصد رب التمثال ما زرع. زرع هتك العرض، والفتنة بين المرء وزوجه، فحصد الخيانة. لسان حال الراعي، حال العنزة: أنا الوطن، أنا الحرية، أنا العدالة الاجتماعية، أنا الشعب. ولسان حال رب التمثال: أنا كل شيء.

كل ذلك شهدنا عليه عبر شاشات التلفزة العالمية، ومع ذلك أين الرب؟

لا تقل أين الرب، قل أين رأس النعامة؟ معك حق. وما حقيقة ما يجري في بلاد الرافدين؟

فتاة خصها الله بجمال النهرين، في نومها كابوس يجثم على صدرها، أنفاسها في حالة زفير، إنها في حاجة لقليل من الشهيق الذي يعيدها إلى

الحياة، تتقلب في معركة تكاد تنهزم فيها، تعتقد أنها تصيح (النجدة.. النجدة..) وهي لا تصيح إلا

داخل صدرها الذي لم يتمكن من دفع الكلمات إلى مخارج الكلم. ساد اليأس في النفس المضطربة، الموت رحمة من كل شر، آمل ألا أعذب مرتين، الصراخ علي لا يعيد إلى الحياة التي يبدو أنها قد انتهت، إخوتي الذين نجوا من التعذيب بالكهرباء يوم أن اعتدى عليهم جنود الطاغية ظلما، نأمل أن يكونوا في رعاية الله وحفظه، وأن يتمكنوا من الهجرة إلى بر الأمان.

الوالد يستعد لصلاة الفجر سمع صوتًا مختنقة فاقترب نحوه، فلاحظ ابنته وكأنها تود أن تتحرك وهي لا تكاد، اقترب منها ما بك يا نور؟، ما بك يا نور؟، ولا مجيب، مسكها من كتفيها فلا مجيب سمعت أمها صوت أبيها يرتفع فهمت على سرعتها من تحت الغطاء ما بك؟ هات الماء، نور في حالة خطرة، فنجان الماء البارد يستلمه الأب ويرشه بكل قوة على وجه نور فتعود الأنفاس لصدرها، قومي صلي الله تعالى لقد جاء الفجر، أنا لن أصدق أن الفجر قد أتى. انظري إلى النافذة، الحمد لله لقد أزيح الكابوس، الذي جعل كلماتي حبيسة مع أنفاسي في ظلمة القفص.

الاحتفالات مع الشروق في كل بيت تتغنى. منابر العلم تبسط المدرجات والممرات بالبسط الفاخرة، أناشيد الطلبة مع الخطب الحماسية في حالة عناق، برقيات التأييد تتبادل التحايا بين الداخل والداخل وبينه والخارج. الناس في حفلاتهم يغزوا بالسب والسلب، علامات التعجب والاستغراب، وإشارات الاستفهام على كل لسان. القيم تحت الأقدام أمر لا يطاق، مشادات، (اخرج.. لن أخرج.. اخرج... لن اخرج). فكان الصدام أمر واقع بين بنت النهرين ومغتصبيها.

فتاة بكر في طريقها للجامعة، تغتصب والشمس في قلب النهار، تمزق ثوبها، وفتح صدرها بين أيدي المغتصبين. ثم أزيح الحجاب عن رأسها، فكان شعرها الأسود سترة كاد أن يغطي جسدها لولا العواصف المتصارعة، التي

كانت سببًا في كشف بعض من عوراتها، التي تلاعبت بين أيدي المغتصبين على الخدين الرمانيين تنهمر الدموع المشبعة بالكحل الذي تزين من عينيها السوداوين.

مع أن الغضب يملاني، إلا أن الجمال الذي جعله الله في خلقه يكاد لا يساوي الجمال الذي جعله في بنت النهرين. دموع الوردة تتزايد، والعصافير تتسابق، علي التقاطها تبرًا من على الخدين، بدون شك كلنا نتألم، وبدونه نلاحظ الدمعة في حالة نزهة على الخدين قبل أن تلتقطها العصافير، جميلة عند انحدارها مع الكحل، وأكثر جمالًا عندما انعكست ألوان الطيف فيها. والأجمل منهما عندما يتساقط بعض منها على الأرض وتحت ظلال أجنحة العصافير التي تسبح مثلما الدمعة تسبح.

الصراخ يرتفع: يا سنة، يا شيعة، يا أهل الأديان والأخلاق، تعالوا إلى كلمة سواء، أنقذوني.

اغتصاب لا تقره الشرائع، كيف تريدوني أن أنام وأمارس الحب مع مغتصب شوه جسدي بالدماء المنهمرة من آثار مخالبه؟ هل ترضون هذا الأمر أن يمارس مع بناتكم وزوجاتكم وعشيقاتكم؟ وإذا رضيتم، أو رضي بعض منكم بذلك ظلمًا فهل يعتقد أن الممارسة مع المغتصبين تحقق لهم اللذة التي تمكنهم من التبعثر بين النهرين، ونهي الحقد الذي دفن في صدري يوم أن تعرى كرهًا؟

أخذت إلى مكان بعيد، ليعلن عن عرسها، ويجري العقد عليها في غياب وليها، ودون رضاها، وأمام أعضاء مجلس الأمن المحترمين، الذين لم يقدروا الخصوصية الدينية للمسلمين، حيث المسلمة لا تنكح إلا مسلمًا.

مع دخول العريس انقطعت الكهرباء.

قالت المغتصبة في نفسها: نأمل أن لا يأتي الضوء، ولا يأتي النهار من بعده كي لا أرى وجهه القبيح.

أنا حبيبك الذي خلصك من الطاغية.

أيام الطاغية قضيتها نومًا. أما أيامك سأقضيها مقاومة.

أنا يا حبيبتي من يجعلك شرق أوسطية ذات سمعة عالمية.

هل يعقل أن تكون المغتصبة حبيبة؟ اتركني وشأني، فأنا بنت الرافدين الذين سادت حضارتها العالم، واعلم أن الإسلام ديني فإن لم ترحل أقسم لك بأنك سترحل.

لقد أصابني الدوران، اتركيني أنام.

لن أتركك. اختناق من شدة الحرائق، إسعافات الإنقاذ ما يمكن إنقاذه، كمامات الأكسجين توضع على فم العريس، خروج من المشفى، عند الوصول إلى المنزل انفجار في بعض من أنابيب الغاز، سيارات الإطفاء مسرعة والطائرات الداعمة على الارتفاع المنخفض. انتظار ممل، تمكنت الفرق من ربط الأنابيب المفجرة، والعريس في الخطوة الثانية من خطاه تجاه المنزل وإذ بأنابيب الماء تنفجر، اصطدام السيارات المسرعة للإنقاذ، وسقوط العريس في البركة، فرق الإنقاذ مشتتة الجهود، والإرهاق مع عدم النوم، العقول لا تستطيع أن تفكر جيدًا، حائرة بين هذا وذاك، ولم تتبين بعد ما هو الأفضل، وتتساءل: هل ما قالته المغتصبة حق أم أنها فترة غضب وتزول؟ الكل ينتظر. زمن الانتخابات يقترب، والسيارات المفخخة تتزايد، والمتطوعون كان عددهم بالأمس أقل، والحدود مفتوحة، يصعب السيطرة عليها.

محاولات الاتصال مع المغتصبة غير مثمرة. ألم أقل لكم إن مقاومتي ستكون شديدة، وعنفي في حالة تضاعف باستمرار. عبر التاريخ الاغتصاب يقاوم بكل عنف وشدة، وخاصة في البلدان العربية، والنتيجة دائمًا انتصار المقاومة وهزيمة المغتصبين. ولمعظم أمم العالم تجارب اغتصاب مع الوطن، اعتدى الأحباش على بعض من بلدانه بالقوة وخرجوا منها خاسرين بالقوة، دخل الفرس محتلين لبعض من أجزائه وخرجوا منهزمين بالقوة كما هزم التتار

من قبلهم، احتله الأتراك، والرومان، والإسبان، والإنجليز، والفرنسيون، والإيطاليون، وكذلك الأمريكان الذين لم يستفيدوا من تجربتهم في ليبيا وبيروت والصومال، فعادوا مرة أخرى مغتصبين لي، وبدون شك سأتحرر وسأعود لممارسة دوري على الساحة العالمية.

العرب أيها السادة بطبيعتهم يقبلون الاستسلام لبعضهم البعض حتى ولو كان البعض منهم ظالما، ولكن لا يمكن أن يستسلموا لمعتدي خارجي، فهم يحبون الاستشهاد، ويتفاخرون به، ولذا يخافهم الموت ولا يخافونه، وفي تعاليمهم القيمية من يطلب الموت تكتب له الحياة. فأنا التي قضيت أيام الطاغية نومة سلمت من الإقامة في مقابره إلى يوم البعث، في بدني حوالي خمسة وعشرين مليون خلية، افتراضًا لو استسلم منها أربعة وعشرون مليون خلية بدون إرادة، سيضل بدون شك هناك مليون خلية تطالب بالموت في سبيل أن تكتب لها الحياة. ومن لم يعش التاريخ، عليه بمشاهدة ما يجري في فلسطين المحتلة، حيث الحياة فيها تنزع بالحجارة انتزاعًا.

ولعلمك أيها الغاصب أن من يقرأ تاريخنا عن بينة، يعرف أننا عبر التاريخ معارك، كتبت علينا أو كتبناها، وإلى الآن لم تنته بعد، ولا توجد أمة على الأرض قدمت ما قدمناه من تضحيات، وقاعدة الدفاع العربي المشترك لا زالت سارية المفعول، فكل بقعة من تراب الوطن تحتل تقع مسؤولية تحريرها والدفاع عنها على القاطنين عليها، مع ما يضاف إليهم من متطوعي البقاع الأخرى، وما يمكن أن تمد به الحدود سرًا أو علانية، حتى ولو تظاهرت بعض الحكومات بالإيماء للآخرين.

لقد انتهت اللعبة.

أية لعبة؟

تباع بلد الرشيد، وتسأل أية لعبة! الشمس في كبد السماء والتلفزة العالمية تنقل ما يسمح به أن ينقل من ميادين المعركة التي كنا نعتقد بأنها أم المعارك، فإذا بالدبابات وجنود الغزاة يدخلونا بسلام آمنين، أين ألوية

الجيش وأركاناته وكتائبه وسراياه؟ أين حامية الرب (الأحزمة الموثوق فيها) المخلصون من الدرجة الأولى. لا أعتقد أن جميعهم تآمروا جملة واحدة، ولكن اعتقد قد صدر لهم أمر التخلي والانسحاب من المواقع المتقدمة، ثم ترك جميع المهام القتالية.

لم يشاهد جندي واحد يقاوم أو حتى يحمل بندقية في يده، كيف يحدث هذا وكان الملاحظون قبل يومين من بدء اللعبة على مشاهدة للمقاومة، وكانوا يشاهدون ويسمعون الإذاعات التي تنقل الأخبار (الموتى بالعشرات يتساقطون في كل مكان) وآخرها معركة المطار الشرسة. ما أجمل اللعبة قبل أن تنتهي؟ وما أسخفها في النهاية!

وكأنك تود أن تقول هناك اتفاق بين الرب والمفاوضين الذين لم تتمكن أشعة الليزر من اكتشافهم، اتفاق يكون فيه خروج الرب من العاصمة، وأن لا يعلن عن استسلامه أو انسحابه حفظا لماء الوجه. في مقابل تسريح جميع المقاتلين، وترك الأسلحة الثقيلة في المعسكرات لتسلّم بالجملة بلا ثمن.

أين أركانات الجيش والقادة الميدانيون!؟ هل يعقل أن يتخلوا عن مواقعهم في وقت واحد ما لم تصدر لهم أوامر من الرب؟ لو كانت خيانة أو مؤامرة من بعض الأركانات العسكرية لكانت الدماء في شوارع العاصمة وأزقتها تجرف المباني وترمي بها في النهر. هل ينسى ما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي (إني أرى رؤوسًا قد أينعت وقد حان وقت اقتطافها)، وهل نسي قوانين الحرب التي تستوجب قتل من يحلم في منامه بأنه قد يفكر في ترك مواقعه في ميادين المعركة؟

ألم أقل لك إنها اللعبة المتولدة؟ اتفاق يسلم فيه الرب من كل أذى، وتسلم أسرته من بعده (زوجته وبناته) في مقابل تسليم مفاتيح المدينة. اللعبة كما رسموها ورق، ورقة بورقة من رقم واحد إلى رقم خمسين. ولأنها اتفاقيات ولم تتمكن أشعة الليزر من اكتشافها سيضل مصير الرب فيها إلى حين ليس أكثر، ولن تعطى له الورقة التي أعطيت لهتلر (الذي لم يعرف مصيره حتى

الآن) ولأنها لعبة ورق فله من الفرص ما يجعله ورقة يمكن استخدامها في الانتخابات الرئاسية المقبلة، مع أنها لن تحقق النجاح ثانية. أمَّا في دائرة غير المتوقّع فسيكون الهروب ومحاولة النجاة بالرأس مركزًا لإدارة المعركة، ومع ذلك فإلى متى سيكون الهروب والاختفاء؟!.

وللأسف، مع كل المحاولات التي بذلتها وسائل الصحافة العالمية لم تمكن من الرؤية كي لا تحكي الرواية التي بموجبها لمت بغداد، أسرار يعلن على أثرها الرئيس الأمريكي جورج بوش انتهاء الحرب.

بعض من العناصر القيادية السابقة في أركانات الجيش وفي حزب البعث، كانت المفاجئة لها مذهلة، فقررت أن لا تستسلم، بدون شك سيكون لها اتصالات سرية بدول الجوار وبالدول التي من خلفها، اتصالات بعضها مع الحكومات وبعضها مع القبائل المتاخمة، وبعضها مع التنظيمات الجهادية التي لن تتأخر عن الدعم بالقوة.

لقد انتهت اللعبة، التي ضحكت فيها المعارضة على أمريكا، عندما قدمت لها في لندن الحلول على الطبق، الذي نظرته أمريكا طبق فضة، مع أنه في حقيقة الأمر كان طبقة من سعف النخيل، ويا للغرابة لم يكتشف أمره إلا بعد إتمام عمليات الاغتصاب. وفي هذه اللعبة ضحكت معظم الخلايا الخمسة والعشرون مليونًا على من قدم الطبق باسمها وفي الوقت ذاته على من قدم له الطبق. لقد اشتعلت النار في سعف النخيل دون أن يقطر فضة، وامتدت لتلتهم من يعتقد أنه قادر على إطفائها، فالنار التي أشعلها غضب المغتصبة لن تكون بردًا وسلامًا إلا على إبراهيم الذي يمتلك القدرة على رفع قواعد البيت.

وماذا يكون إبراهيم هذا؟

كان عليه السلام أمة قانتًا لله، ولذا كانت النار عليه بردًا وسلامًا فالأمة عندما تكون إبراهيم تستطيع بكل يسر أن تطفئ النار مهما كان حجم الحطب الذي يوضع عليها، ولكن إن لم تكن كذلك فسيوكون الاستسلام أمر

واقع ولا استغراب فالأرباب من دون الله في سبيل بقائهم اربابا يبيعون الأوطان بثمن بقائهم دميًا.

ضحكة واحدة تضيع بلدًا بكامله..

مع أنها واحدة إلا أنها المتولدة بعد الاغتصاب الذي لم يتمكن العريس بسببه من إدرار عاطفة العروس الغاضبة، ما جعله يفكر في نظرية (علي وعلى أعدائي) التي فيها ينقلب السحر على الساحر، فتصبح المعادلة الرياضية تساوي صفرًا. هذا الأمر يدعو إلى المزيد من توليد اللعبة، التي قد تشعل النار في الخطوط الحمراء بين المسلمين السنة والشيعة، وبين العائدين بطبق سعف النخيل وبين الذين كانوا هدفًا رئيسًا، وبين من يفكرون بشكل شمولي وبين الذين لا يرون الحلول إلا في التجزئة.

معك حق، إنها نار فتنة ولا يطفئها إلا إبراهيم.

ملابس العريس البيضاء ليلة الدخلة، تنغمر في ظلمة حالكة، ودم حالك، والنزيف لا يتوقف، والصداع يتزايد، والمغتصبة تتحدى، تغني وترقص كل ليلة وكل صباح، على الأنغام السارّة (كل يوم تقتل المقاومة جنديًا أو جنديين أمريكيين تقريبًا وعددًا من الجرحى)، زغاريد الفرحة ترسم ملحمة، في فؤاد العروس، وأذان الجوامع ونواقيس الكنائس فرحة بزيادة عدد المسلمين، وصدور المصلين تضيق، وآلامهم تشتد من موت الأبرياء. لأول مرة أعرف ما الفرق بين رقص العاهرين والعاهرات، ورقص المحترمين والمحترمات، ولكل موسيقاه، بعضهم سكارى، وبعضهم في حالة نشوة.

الضربة على الرأس إن لم تسقطك أرضًا تلحقك بالدوران. فالمغتصبة حين القبض عليها تبعثر صدرها بين أيدي المغتصبين كرها، قدماها حافيتان، ساقاها الجميلتان عاريتان وشعرها منسدل إلى ركبتيها، فكان الدوران من شدة الحشمة التي تربت عليها في بيت العائلة الكريمة. أفاقت والغضب يملؤها. سددت ضربة للغازي من حيث لا يحتسب، دوران شديد، جعله لا يرى من الألوان إلا الأسود والأبيض (معنا أو ضدنا) محاولات لتكبيلها بالحبال،

تحولت فيها الحالة إلى نار، شبت في حبالهم وعصيهم، ألسنتها في علو للفؤاد. نار لا يطفئها إلا إبراهيم.

الذهب الأسود في الأنابيب من الآبار إلى التفخيخ يشتعل. التحف الثمينة والآثار القيمة من المتاحف إلى حقائب الدبلوماسيين مشاركة منهم في طمس آثار الحضارة. أقراط المغتصبة وحليها وأحجارها الكريمة التي تبعثرت إذا ما جمعت تبني قصرًا لأم قصر في الجنة. العروس بدون حليها عروس، ملمسها الإسفنجي كأنه قطعة من الجنة. كل ليلة تحتفل مع الأحداث، ومع الزغاريد تزغرد على أمهات الشهداء اللاتي يزغردن على من لا يؤذي بريًا. تتدلى لتعانق أبناء الحجارة، والشموخ يصعد من شفاههم إلى جبهتها القمرية، فيعانقه الشموخ في سكينة، ما جعل الشفتين تكتبان بين الحاجبين عنوان قصة (تراب الوطن مسك تعشقه الشهادة).

النجوم تتدلي في خشوع للإله، وسكون الليل يتكلم بالسكون دون حركة، كاتم سرًا فيه نور سيلوح في الصباح عندما يأتي الشروق يتكلم.

يا ليتهم يفهمون.

من تعني؟

المغتصبون، يا ليتهم يدركون كيف نفكر؟ كيف نفهم؟ متى نقبل، ومتى نرفض، ولماذا؟

عين الصواب، إذا لم يدركوا أعرافنا ومعتقداتنا وثقافتنا، لن يكون باستطاعتهم تقدير ظروفنا التي تستوجب منا أن نكتب بدمائنا قصة (تراب الوطن مسك تعشقه الشهادة).

كان البعض يظن أن قدومهم كما يدعون لتعليم الديمقراطية، فأيد وهلل، وكان البعض يظن بأنهم مدرسو الفن المعماري فتقدم وسجل، والبعض الآخر كان يعتقد أنهم تجار السوق فتأجر وأجر.

وحقيقة الأمر.

لعبة ورق (اربح تخسر).

ومتى ستنتهي هذه اللعبة؟

متى ما توفرت الثقة.

شرط يحتاج إلى زمن.

والزمن كفيل بترويض الطغاة والمغتصبين.

وإذا ما تم ترويضهم هل يمكن أن ينالوا الثقة؟

مع أن وضع الثقة أمر صعب، إلا أن الحياة تجارب. فالقط أدى فريضة الحج مع أنه لم يقف بعرفة.

لم أفهم.

أقصد حالهم كحال القط.

وما حال القط؟

في الأشهر الحرم لا قتال ولا اقتتال إلا إذا كتب على المؤمنين وهو كره لهم، ما جعل القط يتظاهر بحسن النية خلال هذه الفترة مع الفأر، خاصة وأنه ينوي أداء فريضة الحج، ذهب القط إلى الحج ليكفر عن سيئاته التي وضعت عليه أوزارًا من الذنوب، وقضي مناسكه طوافًا وسعيًا وتبركًا بالمقامات والآيات العظام، وبعد عودته إلى بلاده، فرح الأهل والجيران بعودته، وعندما سمعت الفئران بعودة الحاج تنادت لتناقش الأمر، واتفق الجمع على الذهاب إلى الحاج وتحيته لأداء الفريضة باستثناء فأر واحد اعترض على ذهاب الفئران إلى القط، معللًا ذلك بأنه عدو لهم، ولأجدادهم الأبرار، فلا ينبغي الذهاب إليه، ومع ذلك ذهب الجمع إلى الحاج المباركة الحجة إلا ذلك الفأر.

عندما وصل جمع الفئران، عانقها الحاج بحرارة وعانقته الفئران بخوف، وجلس الجميع لتناول أطراف الحديث بينهم.

خلال هذه الفترة قام الحاج ببعض الحركات الاستعراضية، التي فيها ما يدل على العودة إلى السلوك الأصل، وعندما يتذكر أنه حاج، يحاول أن يهدأ نفسه ويبدأ في توزيع الابتسامات على كل فأر، وكأن بينه وبينهم مودة ومع أنها فترة قصيرة جدًا إلا أن الفئران شعرت بها فترة طويلة نتيجة الرعب الذي يملأ الصدور. وعندما رجع جمع الفئران إلى القرية حمد لهم – ذلك الفأر المعارض – الله على سلامتهم من العدو، وسألهم كيف حال الحاج بعد عودته؟ فأجاب الجمع: نشهد بالله إنه حاج، وبسمات الحجاج عليه، وشنباته رفرفات والقفزة (النطة) لا زالت فيه.

إذن وكأنه لم يحج.

نعم وكأنه. ولكن كما يقولون اليد التي لا تستطيع عظها قبلها، هذه قوة ظالمة إن لم تفوت عليها الفرصة قد تلتهم الأخضر واليابس. نحن معشر الفئران عقول قادرة على غزو الأرض ومن عليها، نحن في المزارع فلاحون، وفي المساكن عاملون، وفي كل مخزن حارسون، فلا داعي للمواجهة حتى يأتي الحين

الذي يعتمد على قوته لا بد أن يأتيه اليوم الذي سيتكسر فيه، أما الذي يعتمد على عقله يستطيع أن يحقق أهدافه بأفضل السبل وأقل الخسائر، وبما أن الزمن كفيل بترويض الطغاة ومغالبتهم، فلماذا لا نراهن عليه؟ وبما أن التقدم العلمي قادر على طوي المسافات فلماذا لا نراهن عليه؟

نعم الحل يكمن في هندسة الجينات، التي تمكن العلماء من استنساخ النوعين في النوع الواحد، الهيكل قطي والدماغ فأري، وفي المقابل يكون الهيكل فأري والدماغ قطي، حينها يعم العالم الاستقرار، فالقط عندما يفكر بعقل الفأر لن يفكر في مهاجمته والانقضاض عليه، والفأر عندما يفكر بعقل القط، سيكون متمسكًا به أخًا وصديقًا.

ولهذا بالعلم يمكن أن تبنى القرية الصغيرة، وبالاغتصاب يمكن أن تهد قرى مشيدة، ويزداد عدد المقابر الجماعية، ويزداد استهلاك الرخام الذي تكتب عليه شهادات البراءة من الحكومة.

الفئران ليس من السهل الضحك عليها، أما القطط فالأمر ميسر.

كيف؟

قدم لحمًا أو جبنًا مطعمًا بالسم للقطط، تأكله دون تردد. ثم قدم ذلك للفئران فتتردد، وبعد حين من التفكير السريع تقدم أحد أبنائها الصغار ليذوقه ثم ترتقب، فإن تأثر بذلك ومات تنسحب وتمتنع عن الإقبال عليه ثانية.

عقل هذا حاله تهزمه القطط التي تقبل على الأكل دون تردد حتى ولو كان ما يؤكل منه مسمومًا!

لا تستغرب فالذي يقرر بلا تردد أن يأكل ما يغتصبه سيكون الأكثر عرضة للخطر، ويكون في مفاجئة مع غير المتوقع.

منذ أن سمعت الحديث عن غير المتوقع والأمل يملأني، فيا ليته لا يتأخر.

كان من غير المتوقع أن يكون الرب نعامة، ويكون التمثال صامدًا في الميدان إلى النهاية. وكان من المتوقع أن يعم الأمن والسلام وتتولى المعارضة زمام الأمر أوَّل ما تضع أقدامها على تراب الوطن الذي حرمها الرب من حق العيش عليه بسلام، ولكن الذي حدث كان في قائمة غير المتوقع. الفتاة التي اغتصبت وهي في طريقها إلى الجامعة، تحررت، المغتصب رحل في الزمن غير المتوقع، النهار سلخ الليل، الشمس تذيب الجليد، وترسم قوس قزح في السماء التي أمطرت غيثا نافعا على المرعى. لفت الخرائط العسكرية كما كانت قبل عرضها على الجنود. الوجه القمري من سناء بعث قبلاته لسكان الأرض، نظرات الناس طوت المسافة بين اليابسة والسماء وقبلت القمر، القبلات باقات تتبادل، ولي الأمر حضر وكيلًا

شرعيًا، حفلات الزفاف تمتد في المدن والأرياف وعلى مياه النهرين، العروس تجفف جسمها الإسفنجي الملمس وتلف شعرها بالمنشفة، الجمال قطعة من الجنة، الأنوثة المتمركزة في كل خلية من خلايا البدن تجذب من تمكن رؤية منها، عيون الناس التي تمكنت من رؤيتها تتمكن من معانقة الجمال وتقبل القمر، النجوم تتغنى، والعصافير فرقة صوتية، والإيقاع من نسيم الود، والهوى قائد الفرقة، والحضور كان ودا خالصا في الفؤاد، وأناشيد السلام والتحية.

الآن عرفنا أن هذا التمثال العملاق شيد اعترافًا بدور ذلك التمثال الذي سقط شهيدًا في ميدان المعركة، وعرفنا من خلاله اللعبة التي تمت ولم يعلن بعد عن فصولها واستراحتها وأبطالها.

وعرفنا أن الزمن كفيل بكشف المدن الجماعية (المقابر) التي شيدت على حساب حق المواطن في العمار والبناء السكني في العواصم والمدن والقرى العربية، وإنه كفيل بهد التماثيل التي تبني للأرباب، وكفيل بإسقاط الحكومات الظالمة، وبإزالة الأشواك العائقة لحركة الناس تجاه ممارسة سيادتها بإرادة.

ورأينا جمال بنت النهرين، الذي تحدث معنا بكل طلاقة، رقة، ذوق، ورفعة. أنوثة عالية في لسانها، في مظهرها، وفي حركتها وسكنتها، كان جمالها سيدًا في الميدان، تملأه الثقة، ويقويه الإيمان الذي هز العواصف من أماكنها دون أن تهزه قيد أنملة. في جمالها ثقافة وحضارة، كم هي صلبة، لم تلن، لم تضعف، لم تخف، ولم تستسلم، حتى نالت حريتها حفاظًا على شرفها، قيمها، تاريخها، وجمالها.

ولا تنسوا أن المآسي التي ألمت بها هي في حقيقة الأمر مآسي وطن بكامله، المقابر الجماعية التي نالت شهادات التقدير من حكومات غابة الزيزفون ستظل شاهدًا على ممارسة الحرية بأسلوب ديمقراطي شفاف، ما جعل الشهداء في الوطن أكثر عددًا من الشهداء في سبيله، وسيأتي اليوم الذي تضيق فيه الأرض على الطغاة بعد أن ضنوا أنها رحبت بهم، يوم أن

تأتي تكون أنفسهم شاهدا على الضيق الذي يلم بهم، وتزاح الكوابيس عن أفئدة المواطنين بعد أن كانت مقابر ومقار للأحزان والمآتم.

يبدو أن يا سارية تأثرت كثيرا.

كيف أمتلك فؤادا ولم أتأثر؟!

ليس كل من يمتلك فؤادًا يتأثر. المسألة تتعلق بالقيم التي تجعل للأفئدة والضمائر معاني، الإنسان بلا قيم كيس يقبل بأن يملأ حتى ولو كانت زبالة، وبالقيم يضل سبيكة على معايير الرفعة.

اتفق معك. المهم أنا ذات إحساس يرفض المهانة. أغضب من أجل كرامتي وأمتي وديني وأعرافي وقيمي، وفي مقابل ذلك أفرح عندما يعمني الخير ويعم ذوي العلاقة بي فيما ذكرت.

وأنا أكتب جاء الخبر عاجلًا (لقد تم القبض الليلة البارحة 13/ 12/ 2003 على الرب) في قبو بمدينة تكريت، فقلت: لقد تم اللعب به ورقة انتخابية، ورقة يعتقد أن من الحزب الجمهوري والرئيس جورج بوش من الفوز في الانتخابات القادمة ثانية، وفي اعتقادي لن يمكن. ولأنه كما يقولون (المخرج عاوز كده) قتل أبناه كمتغير من متغيرات اللعبة التي في بعض الأحيان يعبث ببعض من أوراقها إذا ما أحس أحد الأطراف بمقدمات الخسارة أو الهزيمة أو حتى لمجرد أن تهيأ له ذلك.

قالت سارية: خبر محزن، يتم القبض على الرب في قبو، وتعرض صورته التي لا تمت للتمثال بصلة، الشعر الطويل غير المهذب، والأرق الظاهر على وجهه الشاحب، يا ليته قتل، يا ليته مات، ولم يقدم بهذه الصورة المذلة.

ونحن نتحدث دخل أبو الثمن الذي لا يؤمن بالرب ونظامه، والدمع من عينيه، ولسان حاله يرفض إذلال القادة حتى ولو كانوا خصمًا.

(4)

يبدو أننا في حاجة إلى استراحة تغير حالنا من حال إلى حال أفضل.

إلى أين ما تشاء يا صديقي؟

إلى الجوهرة.

أين هي هذه الجوهرة؟

على ركن من أركان بيتنا.

ما ذاك مجمع الأنوار؟

تلك هي الجوهرة.

مرحبًا بكم ضيوفنا الأعزاء، تفضلوا بالدخول.

قلت والسارية في وقت واحد كيف ندخل والمياه تملأ المدخل من أوله إلى آخره؟

أين المياه ها أنا أقف وأتحرك من بداية المدخل إلى نهايته.

تفضلوا إنها القوارير الحائلة بيننا ومياه البحيرة تلك (وهي تشير إلى بحيرة في مواجهة الجوهرة).

مرة ثانية نتحدث مع سارية ونتساءل: كيف تشير المستقبلة إلى تلك البحيرة والمياه تكاد أن تكون تحت أقدامنا، ومرة ثانية يكاد صديقانا نور وناير اللذان نحن في ضيافتهما يموتان ضحكًا.

والمستقبلة تحاول أن تخفي ضحكها تفضلوا، إنها الجوهرة الممرّدة بالقوارير، وما المياه التي ترونها تحت الأقدام إلا انعكاس لمياه تلك البحيرة.

لن ندخل إلا إذا دخلتم أولًا، فإذا رأيناكم تغوصون في المياه غرقًا أبلغنا رجال النجدة، وإن لا فمن ورائكم داخلان.

لم يغرق أحد.

هيا ادخلا.

هل أنتم متأكدون أنكم بخير ولم تغرقوا؟

ضحك.. ضحك.. ضحك.. ثم دخلنا كما دخلت بلقيس مع سليمان عليه السلام، بعد أن كشف كل منا عن ساقيه ونعاله تحت إبطه.

الضحك يكاد يعم الجوهرة.

مرحبًا بكم، تفضلوا بالجلوس على الأرائك، وأنا في خدمتكم.

ما هذه الإنارة الهادئة، وما هذا النسيم العليل!! ثم التف هنا وهناك، وقلت: وما هذه الحور العين!! والله أنها للؤلؤة من لآلئ الجنة.

بعد تناول عصائر تغذية الروح، وقف صاحبانا وقالا معًا هيا إلى الدخول.

بعد أن وقفنا سويًا، الدخول إلى أين؟

إلى قلب الجوهرة.

ونحن أين إن لم نكن في قلبها بعد؟

نحن في زاوية الاستقبال.

ركبنا المصعد مع الصاعدين، ثم قالت المرافقة لنا مرحبًا وهي تشير إلينا بالخروج، فعرفت أن عطبًا فنيًا قد لحق بالمصعد، فكنت أول من خرج وتوجه بالدخول إلى مصعد آخر، فمسكني صديقي على الفور وهو يقول تعال هنا، لقد وصلنا.

وصلنا إلى أين؟

إلى الطابق مائة وخمسين.

قلت بصوت عالي: وكأنكم تريدون أن تثبتوا أننا مجانين، المصعد لم يتحرك من مكانه وتقولون لنا مرحبًا بكما في قلب الجوهرة في الطابق المائة وخمسين، إنه أمر غريب، نحن نؤمن بالله تعالى، ونؤمن بملائكته وكتبه ورسله، فلا تشكوا في أمرنا أيها الأخوة!!

وهو يمسكني مع ذراعي، ويجرني إلى الشرفة، ويقول انظر فإذا بنا نطل من علوٍ على ذلك المدخل الذي تضيء على رأسه منارة الدخول من حيث دخلنا إلى الجوهرة.

قلت سامحني يبدو أن دورانًا قد ألتم بي عند دخولنا إلى المصعد، وأنا لم أفق بما جرى معي إلا الآن.

لا لم يصبك أي دوران، ولكن العلم هنا منارات لم يدخلها الغبار، الذي دخل مناراتنا وانتقل إلى عقولنا. المصاعد لا تتحرك بالكهرباء ولا بأشعة الليزر، بل تتحرك بالقوة التنزيهية.

ولكن يا صاحبي، لم أشعر بحركة، وأنا متأكد لا وجود للمفاتيح في المصعد حتى تقول لي إن أحدًا قد ضغط على مفتاح الصعود أو الهبوط.

معك حق هذا الأمر كله كلمة، وليس مفاتيح.

ولكن لم أسمع أحدًا يصدر أمرًا.

المتفرسون لا يستأذنون من أحد إذا ما قرروا الدخول، وقوة دخولهم صمت وتمعن، أو انشراح وابتسامة.

ولكن أين الكلمة فيما تقول؟

الصمت كلمة. الانشراح كلمة. والابتسامة كلمة. وجميعها تحتوي أمرًا، أليس كذلك؟

بلى إنها الكلمة.

العاملات في قلب الجوهرة وكأنه مرسومات رسما، وعندما يشربن ماء تراه يجري في رقابهن، وكأن رقابهنَّ من القوارير الممردة، وأصواتهنَّ؛ لم تلد أم بعد مولودًا يستطيع أن يعبر عن الأحاسيس والمشاعر الفياضة التي تتكلم بها، وإذا ما ضحكن خيل إليك إنهن ملائكة. وإذا أراد أحد أن يتعرف على آيات الخالق في خلقه للجمال فعليه بالغوص والتنزه هناك. وأنا في حديث مع نفسي رأيت سارية منغمسة في حديث مع نفسها، ما بك؟

لا أستطيع أن أصف لك نفسي، ما هذا الجمال الذي خلق في الولدان!!

لا يساويه يا سارية إلا الجمال الذي خلق في الصبايا.

وهي تدنو إلي يبدو أنك مثلي.

أنا أكثر، ولكن نحن في قلب الجوهرة.

وإلى متى سنضل هكذا؟

إلى أن نعود إلى استراحة إلى بيتنا.

أحس أن مفاتيح السيطرة وكأنها على جرفي هاوٍ.

وأنا وكأنها على ريشة طائرة في أي لحظة أتوقعها أن تسقط على رأسي.

ينادوننا.

نعم، نحن آتون.

لندخل إلى المركز المعلوماتي، حيث الدارسون هناك على اتصال لا ينقطع، جميع اللغات تترجم في الحال، من يكلمك بلغة قومه تفهمه بدون وسائط، ويفهم أيضًا لغة قومك بدون وسائط، بمجرد أن تتقابلا في زاوية الرصد اللغوي، وإذا كنت في قارة أخرى، عليك بدفع اشتراك عمري (مدى الحياة) ليتم ربط أركان منزلك بشبكات الرصد المعلوماتي. حينها حتى

أحلامك ستكون مترجمة بجميع اللغات وتبث لجميع المشتركين، ولهذا سيكون هذا العصر عصر تبادل الأحلام.

تفضلوا إلى هناك حيث بإمكانكم مشاهدة العلوم الحية، ونأمل أن لا تسيطر عليكم الحشمة التي قد تحرمكم من التمعن في حركة الأحاسيس والمشاعر وحركة الوجدانيات، وأيضًا تأمل أن تكون مفاتيح السيطرة لديكم جيدة.

قلت في نفسي يبدو أنني سأرسب هذه المرة في هذا الامتحان. ولكن بحمد الله اجتزته بنجاح، وسارية أيضًا. لقد شاهدنا ممارسة الحب، وشاهدنا عاطفة الأمومة والأبوة، وعرفنا ما يضعفهما وما يقويهما، وبعد أن رأينا بأمهات أعيننا عرفنا أسباب الخيانة في العلوم السياسية والعلوم الزوجية وعلوم الجيرة، وعلوم الدين والاقتصاد، والعلوم الوطنية؛ ورأينا أساليب الغش في الامتحانات، وتعلمنا علوم الكذب التي مكنتنا من كشف كذب الحكومات وأساليب تزوير الانتخابات، ومبررات زيادة نسب النجاح في العلوم الانتخابية على المستويات الرئاسية والحزبية والمستويات البرلمانية والنيابية، ورأينا الرؤساء كيف يخلعون ملابسهم ومتى يخلعونها، ومتي يتبولون لا إراديًا، ومتى لا تسمح لهم الفرصة بذلك، ولقد انبسطنا كثيرًا عندما تأكد لنا حقيقة أن الملك كان عاريًا يوم أن صاح ذلك الطفل الوسيم.

بعدها انتقلنا إلى زاوية الهندسة الفيزيائية فرأينا كيف يتكون الجنين وكيف يتشكل، في أوّل لحظة لذة تتماش فيها المفردة المنوية مع المفردة البويضة، ورأينا الإمكانات الهائلة التي تدخل عليه فتجعله متخلصًا من المورثات السالبة، ورأينا الكيفية التي تدخل بها الوسامة فتزيد الجنين بسطة في الجمال وحسنا في المظهر. ورأينا كيفية التلاعب بالأجنة، وإمكانية تغيير الذكور إناثا وتغيير الإناث ذكورًا، وطمس الذكورة والأنوثة منهم في وقت واحد، ما يجعل المولود ليس في حاجة للختان ولا حتى للزواج. التحكم في أحجام الكائنات تكبيرًا وتصغيرًا، وعلوم الوقاية وتنقية الأبدان من أمراض

الدم وأمراض النفس والنفاس على مقربة من أن تكشف الحجاب الحاجز بين معشر الثقلين.

علوم التذوق وهمسات الوجدان، ودقات القلب الولهان، أسبابها وعللها، والأفراد الذين من ورائها، ونقاط الضعف التي في الأبدان وفي النفوس، ومكامن العلل كلها تعرض على شاشات كشف الأسرار وإظهار الحقائق دون تحيز. اللذة ومشبعاتها ونقاط الإثارة والاستسلام ونقاط التفاعل والنشوة، شريط علمي متواصل خلال الأربعة والعشرين ساعة.

النفس شعب متعددة: النفس الشحيحة، النفس المطمئنة، الهاوية، الضالة، المهتدية، المتربصة، الموسوسة، المجادلة، والنفس الأمارة. جميعها في دوائر متداخلة تمتد في المسافة ما بين البصيرة وفقدانها. علوم التفكر في حالة منافسة مع علوم التذكر.

التاريخ سر لم يعلن عن حقيقته إلا هناك، رأينا الشمس وهي تشرق على حكومات الظل، وسمعنا الألسن التي تنقلب فيها المفاهيم رأسًا على عقب، وعرفنا الأدوار التي تلعبها كل بطانة. أما التقنية فيا إلهي، كل ما يبث يشاهد بدون شاشات تلفزة. كل شيء على الهواء، حتى الأمعاء في المعدة تشاهد، فلا داعي لأشعة الليزر ولا الموجات فوق الصوتية، وكل ما تفكر فيه يشاهد قبل الإقدام على فعله. الكذب أسرار مكشوفة أمام أجهزة اختراق البصر والبصيرة. مراكز الاتصالات المشيدة على الكوكب زحل قادرة على مسح الأرض وما عليها وما تحتويه من كنوز مهما كانت الأعماق التي هي عليها. أعمار الناس تساوي عمر نوح عليه السلام. علوم الطب هواية من الهوايات العامة، مثله مثل الرياضة، بإمكانك أن تمارسها لوحدك في المنزل وبإمكانك أن تمارسها مع الآخرين في الملاعب العامة. لا توجد مدارس التعسير المعرفة واحتكارها، بل توجد علوم مبثوثة وميسرة. كل الناس ترتدي نظارات غير طبية، لتشاهد ما يبث على الهواء في أي بقعة من بقاع الأرض.

ونحن في حركة التنقل بين شعب التخصص العلمي والمعرفي وإذا بالوقت يمسكنا من أيدينا الضعيفة، قائلًا: ألا يعد الالتزام بالمواعيد قيمة من القيم الحضارية؟

قلنا: نعم

قال: أنتم على موعد مع المضمار العنبري، والوقت لا يسعكم إن لم تغادروا في الحال، أو تتصلوا لتغييره، حتى تتركوا فرصًا لغيركم من المنتظرين.

معك حق، هيا بنا إلى النزول لنطفو.

لا داعي إلى النزول بإمكانكم أن تطفوا من هنا.

على الله توكلنا.

عيونكم إلى القمر.

ها نحن ننظر، فإذا بها تاج على رأس كل واحد منا، إلى أن طفونا فإذا بها في علو وردة بيضاء على رؤوس الأشجار المصطفة على الجانبين. تبقى معنا من الوقت ما يمكننا من التنزه على قمة الميم الزنبقي، حيث الكل يكشف عن ساقيه، متوهمين كما نحن توهمنا في يوم الأمس. مع أن الشمس مشرقة إلا أننا وجدنا أنفسنا في موقف متكرر مع الجميع. قبة ممردة، إذا نظرت من قمة مركزها، إلى ما تحت قدميك تلحظ نفسك وكأنك تسيطر على العالم كله، وإذا ما تفرست رأيت تلك الجوهرة المجاورة إلى بيت (صديقنا ناير) حيث المدخل، وبإمكانك أن تنظر إلى تلك الفتيات الواقفات أمام مداخلها للاستقبال والترحاب، وبإمكانك أن تتكلم معهن مباشرة إذا ما أردت أن تحجز مكانًا هناك.

إنها تحتوي على كل كبيرة وصغيرة في العالم، لا تحس فيها بالغربة، حيث ليس لك وقت للتفكير فيما هو خارجها، كل الذين التقينا بهم ورأيناهم، العلائق بينهم تفهم (لكم دينكم ولي دين) الحياة فيها متعة، ترحب بك في كل

خلية من خلاياها، وتلهيك عما يلهيك، وتغمرك بالحنان الودّي، الذي يبث الطمأنينة في النفس الولهانة، ويزودك بالحياة التي تعبر بك على أبط الشوق لتجعلك تتوسط الحلائل دون أن تسقطك في برك المحرمات ومستنقعاتها.

ونحن نتمشى قالت سارية: ما رأيكم أن نستريح متعة في هذه الحديقة الخلابة.

فقلنا جميعًا نرغبها استراحة.

ما هذه الرياحين! ما هذه الضفائر الملونة! ما هذه العصافير التي تكتب بزقزقتها قصة وترسم ملحمة وهي تحوم في السماء، وما هذه الألعاب البهلوانية التي تستعرض بها الصبايا! والخطى تسابق الكلمات في اتجاه ما نشاهد إلى أن وصلنا إلى المدخل الذي كتب على جبهته (زاوية الأنوثة) فجلسنا هناك بين الكلمات الولهانة، التي كان الود بينها حديثًا شيقًا، مع تجاذب بين مناغاته وهمساتنا، فجعلناها نفوسا في نفوس، ساريًا بالأنس ما بين الضلوع، إنه مثل الشموع بين أيدينا يذوب، ونذوب مثلما الماء يذوب بين أيدينا.

الطيبة تملأ النفس وتفيض على الملا، لتعلن فصاحة عن الأسرار والدفء الذي يملأها، وتجيب عن كل سؤال، مع ملاطفة فؤادية، ومشاعر سارية من ملامسة اليدين. وإذابة زبدية، أبدية في السكون، وإذابة في الجلوس، والوقوف، والهوى – متكئين – يتكلم، والمراسيل إليه تتكلم، دون أن ينطق لسان صامتين، حتى فاجأنا الموعد بقوله حان وقت التنزه على المضمار العنبري فمن له موعد معه فليتأهب، وهو يقدم خالص الشكر للذين أتوا لزيارة هذه الزاوية، ويعتذر عن الوقت الذي لم يمكنهم من الاستكمال، ويأمل لهم أن يعوضوا ذلك نزهة على المضمار العنبري.

في حركة تنقل سريعة كنَّا هناك في الآن المحددة لزمن البداية، وأوّل ما وضعنا أقدامنا على شواطئها دخلنا إلى ساحة المضمار، فدخل الأكسجين إلى صدورنا بالتماثل، نحن نتنزه على المضمار كما هو يتنزه في رئاتنا،

وكلما تزداد كمية الأكسجين بها تزداد تفتحًا ونزداد نحن انشراحًا على المضمار العنبري. النزهتان في وقت الآن، وكأنهما طبيبتان متخصصتان في تنظيم نبضات القلب، ما جعل السكينة تقرأ على أفئدتنا نشيدًا وطنيًا تقف له جميع الحواس تحية، وتصدر على أثره موثقًا ينص على اعتراف بكل خصوصية، ويبرق لكل منها برقية تقدير واعتبار لما يميزها عن خصوصيات الآخرين.

اللون الأكسجيني والرائحة العنبرية هما السائدان هناك، حلقات التعليم مفتحة في الهواء الطلق، ومنطق الحوار هو الحجة المبثوثة في كل المسافات: ما بين الشفاه، في مراكز إدراك المعارف، وفي المسافات الرابطة بينها.

جلسنا بإرادتنا في حلقة كان الحوار فيها بين علم المستقبل وعلم الغيب، حتى عرفنا الفرق بينهما، وبعد مبادلة الحجة بالحجة، كان مركز حلقة الحوار هو التفهم، وكانت في مركز عقولنا البيِّنة.

لقد تزين الاحترام وتزينت الأخلاق بلباقة وأدب، لم أعرف مثيلًا له من قبل، ولم أتصور جمالهما كما رأيت بأم عيني، لقد تسلطن كل منهما في ذاكراتنا، عروس وعريس كل واحد منهما أجمل بكثير من الآخر، أما حديثهما بإمكانكم الاستماع إليه في هذا الشريط.

أنا العلم الذي ليس لكم به دراية، مع أن معظمكم يعترف بوجودي، بالنسبة لكم أنا أقطن في مكامن المفاجئات، مع أنني في لوح مكتوب، أفعالي تصلكم قبل كلماتي، ولذا أنتم تفاجؤون، بالطبع لم أكن مولود أحدكم، ولهذا لا أقبل أن أنسب لكم.

أنت علم غيب وقولك حق، فأنا لو لم تكن ما كنت، فأنت القضاء، وأنا السبيل، الذي يسلك من قبل العارفين بدروبي، مع أنني أعرف أنك تعرف أنني لن أعرف دربي، أعرف أنك تحتويني.

بلاغة أخلاقك دائمًا تجعلك الأبن المدلل عندي، إنها طاعة مولود لوالديه، لو أخبرتك بما سيحدث لك غدًا أيها المستقبل قد لا تنام الليلة.

قلت في نفسي إذا كان المستقبل سيحدث له ما يجعله لا ينام الليلة لو علم به، فما بالك بحالنا لو علمنا، فالحمد لك على هذه النعمة.

وقالت السارية تناجيني: يا ليته يخبرني عما سيحدث غدًا.

لو أخبرك عما سيحدث غدا أخبر غيرك بما أنت تسرّين، وأخبرني عن الزمن الذي ستطيحينني فيه إذا كان هذا الأمر في نفسك سرًا.

أرجوك أن لا تفكر في مثل هذا الأمر.

نطق علم الغيب، بعد أن استمع لخلسة حوارنا، قائلًا: لكل منكما حقيقة تاريخية، أنا أعرفها لو كشفتها بينكما لن تناما الليلة، فما بالكما لو كشفت بينكما ما سيحدث للمستقبل الذي يحتويكما.

بكل أدب ورفعة قال المستقبل: معذرة إنها أثقال وأنا أحس بها، فيا ليتك ترحم.

أستغفر الله أنا لا أملك الرحمة، بل أحفظ المعلومة، وأنت الميدان المعد لممارستها سلوكًا وفعلًا.

بالنسبة لي اليوم الجمعة لا شك فيها، وغدًا السبت لا شك فيه.

هذا صحيح ولكن غدًا قد لا يأتي ليكون السبت كما أنت تتوقع.

قالت نور: صحيح ليس كل ما نتوقعه يقع.

على دروبي ترسم الخطط، وتنجز في كثير من الأحيان بكل دقة.

يرد علم الغيب: في بعض الأحيان لا تنجز بدقة، وفي البعض الأخر لا تنجز على الإطلاق، إذا لم تتحصل على اعتماد مني.

إنه بحق عين الصواب، أنا أيها السادة لم أكن مستقبلاً لكم إذا لم يتم اعتمادي. مع أني أعرف الموت، إلا أنني لن أعرف الزمن الذي سأموت فيه،

وأعرف أنك سيادة علم الغيب المحترم تحتفظ بمعلومات نهايتي، فلك مني الاعتراف.

لا طاعة لك علي، طاعتك على من خلقك وخلقني. فأنا علم غيب ليس إلا، وأنت كذلك علم مستقبل ليس إلا.

يقول صاحبنا ناير زوج نور: ألم يكن علم الغيب هو الآخر في الزمن المستقبل؟

لا ليس بالضرورة، علم الغيب يحتوي على كل ما وقع وكل ما لم تتم معرفته بعد، أو الذي لم تعرف علله وأسراره وخفاياه، وهو أيضًا ما يقع في الزمن الآن دون أن نضع له خطة لاستجلابه، وما سيقع خارج كل خطة وتوقع، أما أنا فلن أقع إلا في الزمن الآتي؛ ولذا يتم الإعلان عني قبل وصولي إليكم زائرًا أو عابرًا.

لا شك فيما قاله علم المستقبل، مع أنه لم يؤسس على اليقين، كما هو الحال بالنسبة لما أسس عليه علم الغيب الذي لا مكان فيه للشك. كل الأحياء يأكلون، يشربون، يتعلمون ويعملون، يتزوجون، يصومون ويصلون من أجل المستقبل. ويموتون من بعدها ليأتي من هم من بعدهم ليقولوا عنهم أنهم أموات.

معك حق كل ما سيقع في علم المستقبل بالإمكان معرفته أو توقعه. أما علم الغيب فلا أحد منا يستطيع معرفته إلا بعد وقوعه.

حدث تطور رهيب في علوم المستقبل ما جعلنا نعرف بعد كم من السنين ستتسع الفواصل الجغرافية بين بعض القارات، وبعد كم منها ستضيق المسافة أو تلتحم. وفي مقابل ذلك ليس لدينا ما يضمن بقاء الزمن على قيد الحياة ليتحقق هذا الأمر.

هذا الأمر صحيح بالنسبة لكم، أما بالنسبة لعلم الغيب فلا.

فهو على بينة بزمن حدوثه، ولكن لن يعلن عنه إلا بغتة.

أتمنى لكم التوفيق وأنتم تبحثون عن المزيد المعرفي، ونأمل ألا تقنطوا، حتى يتبين لكم الخيط الأسود من الخيط الأبيض من الفجر.

ماذا يقصد يا نور بالخيطين والفجر؟

يقصد ما لا شك فيه.

ونحن على خريطة الأحوال الجوية عرفنا أن يوم غدٍ

سيهطل مطر غزير حيث نحن، ومن بعده سيكون الجو مشرقًا.

هذا علم المستقبل. أما علمي فسيكون يقينًا عندما يأتي الغد واليوم الذي يليه، فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

ارتدينا معاطفنا وتناولنا المظلات ونحن نتأهب للخروج حتى لا تبتل أجسامنا ثم خرجنا في الزمن المتوقع لهطول المطر فبقينا في شروق حتى هذا اليوم الرابع من الزمن المتوقع.

ألم أقل لكم انتظروا حتى يأتيكم اليقين، ليتبين لكم علم المستقبل من علم الغيب من الفجر.

بلى قلت. ولكن ألا يكون علم المستقبل هو العلم المتوقع، وعلم الغيب هو العلم غير المتوقع؟

الفرق كبير. العلم المتوقع احتمالي الحدوث، قد يحدث ويتحقق، وقد لا يحدث ولا يتحقق. أما علم الغيب لا شك في حدوثه مع أننا لا نعرف ما يحتويه لنا ولغيرنا، ولكن إذا أردتم المزيد المعرفي فعليكم بالدخول إلى ركن المناظرات الفكرية حيث تجري.

استقبال رفيع من الولدان المتلألئين، مرحبًا بكم في ركن المناظرات: رغباتكم.

الرغبة حضور مناظرة المتوقع، وغير المتوقع، والواقع. ها هي الآنسة (جنة) مرافقة لكم إلى هناك. أسم على مسمى، كل شيء فيها يتكلم.

تشق الازدحام أمامنا وكأنها شعلة. مكنتنا من الجلوس على الأرائك الأمامية، وجلست بيننا شعلة. صفيق حار ترحابًا بالمتحاورين.

تقدم المتوقع ليقدم نفسه: مع أنني لأول مرة ألتقي بكم، إلا أنني كنت في عقولكم قبل قدومي إليكم هنا على منصة الحوار العلمي، فأنا الذي يتم التفكير فيه من قبلكم وستقرأ قبل قدومي إليكم، ولذا لا مكان للاستغراب بيننا عندما يتم اللقاء الأول، قبل حضوري إلى هنا كنت لديكم جالسًا على أريكة من آرائك ملكة التفكر، والآن أجلس على أريكة الواقع أمام أبصاركم، وغدًا سأنتقل إلى هناك ضيفًا عندكم حيث المكان الذي يليق بي على أريكة التذكر.

قلت لسارية هو كما كنت أتوقع.

هو أكثر مما أتوقع.

فقالت نور: إذا كنتم تريدون الصراحة كان أقل مما كنت أتوقع، إن لم يكن أقل بكثير جدًا.

هذا أنا كما أنتم عرفتموني، منكم من كانت استقراءاته علمية فرآني كما كان يتوقع، ومنكم من كانت تصوراته عني أقل مما أنا عليه وبالتالي لما رآني كنت الأفضل مما كان يتوقع، وهكذا بالنسبة لنور، التي كانت تتوقع أن أكون أفضل أو أفضل بكثير مما أنا عليه الآن ما جعلها تراني في حالة أقل مما كانت تتوقع.

لو سألتكم ماذا تتوقعون من الكاذب؟ فأنا أتوقع أن تجيبون كذبًا. ما يجعلني أقول لكم هناك توافق وتماثل بيني وإجابتكم التي كنت أنا أتوقع. أما إذا كانت إجاباتكم غير ذلك فأنتم في هذه الحالة تصفون في حبيبي وصديقي الكريم (غير المتوقع). أليس كذلك؟

يجيب غير المتوقع: بلى، هذه من صفاتي وخصائصي، فأنا من لا يفكر فيه برغم وجوده سيدًا في الميدان، إلا القلة القليلة منكم قد يتساءلون

عن أماكن وجودي والزمن الذي قد أظهر فيه عليكم فجأة. نظرية الاحتمالات التي تمت السيطرة بها على رفيقي المتوقع، لم تستطع بعد السيطرة علي مع محاولاتها الجادة في تحقيق حلمها معي. لعلمكم أيها السادة الذين يرسبون في الامتحان أكثر من مرة، هم أولئك الذين يقررون استبعادي من مشاركتهم التقدم إلى الامتحان، والذين يتفوقون هم أولئك الرفاق الأعزاء الذين اتخذوني لهم صديقًا. أنا لا أشكك في مقدرة أخي العزيز (المتوقع) ولكن لكل منا تخصص يتبحر فيه أكثر من الآخر.

بدون شك تمتد الحياة في عالم متوقع، وآخر واقع، وثالث غير متوقع، ومن يريد أن يعرف الحياة فعليه بدخول مدارسها الرئيسة، وإذا استثني أحد مجالات امتدادها الرئيسة استثني من المعرفة التي تمده باستقراء خفاياها وتمكنه من البحث في كنوزها. أكون موجودًا على مقربة من كل واحد منكم في كل لحظة ودقيقة، في كل يوم وأسبوع، أثناء الحركة، وأثناء السكينة، في زمن الولوج وزمن الانسلاخ، فلماذا لا تعترفوا بوجودي ولا تفكروا في ضرورة علاقاتكم بي؟ فلكم مني فرصتان لتفكروا أكثر من مرة في كل مرة، وإلا ستخسرون ما لم تتوقعوا.

وفقًا لدراساتكم لعلوم السيد المتوقع عرفتم أنه لن تطير صغيرة ولا كبيرة على البيت الأبيض ووزارة الدفاع الأمريكي (البنتاجون) إلا وتعلم بها المخابرات الأمريكية وترديها قتيلة. هذه العلوم صادقة في حدود الامتداد المتوقع، ولكنها في مجال اختصاصنا فالأمر ليس كذلك. فلماذا لا تشتركوا في شبكات معلوماتنا المتجددة في كل حين لتطلعوا على آخر ما توصلنا إليه لتتمكنوا من المزيد المعرفي.

العلم غير المتوقع أيها السادة هو علم المفاجئات، التي عندما تتمكنوا من معرفتها تصبح في التفكير المستقبل، ما يجعلكم تستعدون لاستقبالها متى ما وقعت. فأنتم عندما تقرأون في داخل حدود المتوقع، وقوع عواصف أو زلازل في الزمن المستقبل تستعدون لها بما يحفظ النوع من الهلاك،

وتتركوني خارج دوائر اهتماماتكم، ما يجعل الكوارث تلم بكم في مواقع أنتم غافلون عنها. علوم لا تفتح مساحات في ملكات التفكير لتتجاوز بها حدود ما هو متوقع، وتتنزه مع المكونات الذهنية للمعلومات المفاجئات، لن تستطيع أن تكتب كلمات غنائية تتغنى بها خطة ناجحة، على المسرح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولا على المسرح النفسي والذوقي والثقافي.

تقدم إلى المنصة الواقع، الذي لم يلفظ بكلمة، ما جعله وجعلنا في أمر واقع. هو هو، إلى أن تقدم إليه السيد مدير الحوار قائلًا: ما بك؟

هذا أنا أقدم حقيقة نفسي لكم من حيث المظهر والشكل، أما من حيث المضمون فأنا الذي أمامكم، وليس لدي ما أخفي عنكم، إن كنت صادقًا، فهذا أنا، وإن كنت غير ذلك فهذا أنا. إن كان في سلوكي حضارة فهذا أنا، وإن كان فيه تكبر وتجبر فهو أنا. ولهذا لم يكن هناك أحد يستطيع أن يقول أنا قادر على إخفائه.

وكأنه يريد أن يقول لنا إنه الحقيقة.

لا لم يكن الحقيقة، بل إنه الطريقة التي بها يتم تقديمها.

إنه سيرة في ملكة التفكير ما جعله يشغل حيزًا في الذاكرة، مثله مثل المتوقع وغير المتوقع.

ما رأيكم لو تخصص كل منا في واحدة من هذه الشاغلات.

لو كل واحد منا تخصص في واحدة فقط، فإن ذلك يعني قد أصاب عقله الخمول. فعقل الإنسان خطوط متوازية ودوائر متداخلة، عندما تمتد أحد الخطوط وجب امتداد الخطوط الأخرى في الوقت نفسه، وحسب الاتجاه المناسب لها، وعندما تتم إدارة أحد الدوائر المتداخلة ستدار بقية الدوائر بالحركة نفسها، ولكن ليس بالضرورة أن تكون في الاتجاه نفسه ما يجعل غير المتوقع في دوائر الاهتمام.

ماذا تريد أن تقول؟

أود أن أقول لكم ما قاله غير المتوقع، عقل الإنسان إدارة واحدة، لا تدار في الوقت الواحد إلا بشعب التخصص الثلاث.

فلا داعي للتفكير في التخصص الذي يؤدي إلى ضمور ثلثي الذاكرة إذا ما تم التخصص في مجال واحد من المجالات أو الشعب الرئيسة فيها.

التصفيق والهتاف اعترافات جماعية من الحضور لحسن الإلقاء والأسلوب الرائعين اللذين سادا الحوار.

الشعل توقد في مقدمات الخارجين، مثلها مثل جثة.

ونحن أمام المخارج سألتنا جنة عن رأينا فيما استمعنا إليه من مناهج.

فأجبناها جميعًا إنها عنبرية.

ثم قالت لها نور: يبدو أن لا تعرفين مناهج غابة الزيزفون، لو كنتي تعرفينها ما تقدمت إلينا بسؤالك.

قرأت عن أشجار الزيزفون التي كانت تستظل تحتها جيوش هتلر، ولكن يبدو أنني لم أعرف الغابة التي عنها تتحدثين.

فقالت نور: إذا كانت لديك رغبة لزيارتها فأنا أدعوك.

نحن يا سيدة نور لا نزور مواقع وأماكن إلا بعد معرفة مسبقة عنها.

إذا كان لديك من الوقت فهيا معنا إلى أحد الاستراحات العنبرية التي تطل علينا لأروي لك ما لم تتوقعي في غابة الزيزفون.

الآن لدي من الوقت، فلا مانع أن أكون برفقتكم إلى هناك لأعرف.

نأمل أن يكون ما أرويه لك سرًا بيننا حتى لا ينظر إلى قاطنيها بالنقيصة.

إلى هذا الحد وصل بهم الحال. نعم وأكثر مما تتوقعين.

أخبريني

(5)

بدأ العام الدراسي في غابة الزيزفون، فذهب الحمار إلى المدرسة الابتدائية لتعليم الجحوش، ليسجل ابنه بها، استقبله البغل (المدير) بكل ترحاب، ثم طلب منه شهادة ميلاد ابنه، أو على الأقل أن يتذكر تاريخ ميلاده، وأسم أمه، وبعض من ذوي القربي. صمت الحمار والحديث في نفسه (يبدو أنه لم يتعرف على أخيه) ثم قال: أنت يا سيادة المدير المحترم على رأس ذوي القربي، وجحشة جارنا كذلك، وكثير من الذين رأيتهم قبل حين في الساحة، وإن لم تصدق فاسأل أمهاتهم.

وأنا من أسأل؟

أمك؟

ثم من؟

ثم أمك.

ثم من؟

صمت قليلًا ثم قال: (ثم...)، وهو يرفع أحد حافريه الأماميتين في مواجهة صدره إشارة إليه باعتباره من يأتي في المعرفة بعد أمه.

قام المدير على الفور وقبل رأس أبيه، وقبل أخاه دارسًا من دون تاريخ ميلاد لعدم معرفة الوالد به، بعد أن سجل أسم أمه كواقعة من وقائع ذوي القربي. ثم أعطى ولي الأمر نسخة من مقررات المتعلمين في مرحلة التعليم الأساسي، والتعليم الجامعي والعالي، فكانت المقررات في مجملها ترتكز على تعليم النشء المسير على المسارب نهارًا في المرحلة الأولى، المسير على المسارب ليلًا في المرحلة الثانية.

وتعليمهم التهريب على المسارب ليلًا ونهارًا في المرحلة الأخيرة.

أجتاز التلميذ المرحلتين الأوليين بنجاح بعد مضاعفة أعوامهما، والمساعدات غير الشرعية التي قدمت له من ذوي القربي ولجان المراقبة على الامتحانات. ونظرًا لطموحات الأب، وإمكاناته المادية، سجل الأبن طالبًا في المرحلة الجامعية، فكانت رغبة الوالد أن يدرس في العلوم الطبيعية، ويفضل أن يكون الطب، أو الهندسة في الصدارة، كانت استجابة الأبن يا رضا الله، ورضا الوالدين. فكان رضا الوالدين خمس سنوات إعدادي طب، وستة فصول في إعدادي هندسة، وبقية العمر الذي لم يحضره الوالد رحمه الله كانت في إعدادي كلية الآداب، وهذا لا يعني أنه لم يتعلم شيئًا مما علم، فقد تعلم السياسة والاقتصاد والاجتماع كمواد إجبارية، وتعلم من بقية التخصصات المختارة وفقًا لرغباته؛ ولذلك أصبح سياسيًا محنكًا، بعد أن عرف متى ينبغي أن يسير ببطء وكيف؟ وكيف يسير مسرعًا؟ ومتى؟ وتعلم أيضًا في هذا المجال، أن لا يسير بسرعة إلا بالعصا، وأن يتباطأ بدونها، وفي حالة الرخاء يرفع صوته، وفي حالة الشدة يخفضه، ويتخذ النعامة له مثالًا بين كثبان الرمال، وأصبح اقتصاديًا ماهرًا بعد أن تعلم حكمة: ألا تأكل إلا ما يقدم لك أثناء تأدية مهام التهريب؛ ولا ينبغي أن تفكر في شيء يلهيك عن المسير على المسارب، أو يلغي سيرك عليها. وكن حذرًا، إذا فكرت في شيء غير ذلك فلا تنفذه. أما في تعلمه للعلائق الاجتماعية، عرف أنه سيظل أبًا للبغال كما هو أب للجحوش، وعرف أن تزاوجه من الخيل يجب أن يكون أقل عددًا مما يتزاوج به من الحلائل من النوع نفسه، وعرف أن العداء بين أجداده والضباع ليس له علاقة بالقيم، وعرف أنه لن يستوعب شيئًا يقال له إلا بعد ثلاثة أيام من قوله؛ ولهذا لا تتوقع من الحمار أن يضحك معك في الحال على فكاهة (نكتة) تقال، وإذا أردت أن تضحك مرتين قل للحمار نكتة، فتضحك ولا يضحك، وعد له بعد ثلاثة أيام ستجده في ضحكة تكاد لا تنقطع، ما يجعلك تضحك ثانية عليه، وعلى النكتة التي لم يفهمها إلا بعد ثلاثة أيام.

الحمير لا تفكر في قانون الطيران، ولا في شق الأنفاق، ولا في غزو الفضاء، لانشغالها بالمسير على المسارب، حتى لا تحفي حوافرها في التيه، ولحرصها على حمل الأسفار داخل الحدود وخارجها، وما بينها، وفقًا لدروس التهريب، التي اجتازت امتحاناتها بنجاح.

بما أن الحمير على هذا الحال فلن تتقدم، ولن يتغير حالها.

ولماذا الانزعاج!؟ إنها راضية بحالها، فالحمير مجتمع متماسك مع مجتمعات الخيل والبغال، من أجل المحافظة على النوع، ولذلك الخيل العربية هي نواصي خير، ويتغنى الشعراء على خوضها المعارك، إذا ما كتبت على راكبيها، أما البغال فوسيلة إمداد عند كل ضرورة.

كنت أعتقد أن تقول معي: إن هذا العصر عصر الليزر، وغزو الفضاء، والعلوم الباحثة عن المتوقع وغير المتوقع، ولكن للأسف لا زلت تعتقد أن الحمير والبغال، خير وسيلتي إمداد متقدم.

هذه خطي كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطي مشاها. لا. هذه مسارب حمير، ويا ليتك تفهم كي لا تمشيها.

ولكن تعالى يقول: (الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة).

نعم، هذا صحيح، ولكن هل تعتقد أنها الوسيلة المثلي لهذا العصر؟ فرباط الخيل، في عصرها كانت مرتبطة بإعداد القوة وقد أدت الرسالة، ولكن هذا العصر، تتصدره الصواريخ الذكية، ووسائل التجسس على ذبذبات الأصوات والأنفاس، وحتى على الظل إذا ما تحرك صاحبه في نور الشمس، أو في ضوء القمر، أو حتى في الظلمة الحالكة. إنه عصر البحث العلمي، والتفكير في المتوقع وغير المتوقع، والعمل على صناعة المستقبل قبل الوصول إليه.

والذين لا يرون إمكانية لتجاوز المسير عبر المسارب، سيضلون حملة أسفار، وسيضل تفكيرهم قاصرًا على أن الحمير حمالة الأسفار ترتاح من التعب بمجرد أن تتمرغ في الغبار.

لم يقف التعليم في أكاديميات مدينة الزيزفون عند هذا الحد، بل تعداه بذوي الأعمار الطويلة (مع الاستثناء) إلى التمكن من التخصصات العالية والدقيقة، وعاد الاستثناء مكرمًا بشهاداته العليا والدقيقة كما مهملًا، كما عاد البعض الآخر نابغًا في معظم التخصصات العلمية المستوعبة لفلسفة المسير على المسارب، ما جعل المتتلمذين عليهم متفوقين في حمل الأسفار، والتمرغ في الغبار، وبقي البعض هناك ينعق معارضة على العودة، وتمسكًا باللعق، وأستغل جزء لطوي المسافة بين المنازل ومناجم الفحم، وبقي البعض هناك يخطط الأرض ويلونها، وينظر إلى السماء لأجل أن يضع القمر بكامله على ظهره دون كلل ولا ملل. ولأن مدينة الزيزفون لا تستوعب من ينظر إلى القمر، فكان البقاء حجة، إلى أن تلونت عيونهم بزرقة السماء، من كثرة استخدامهم لإشاعة الليزر في قلبها، ومن كثرة ما يلهيهم عن التمرغ في الغبار. وإلى أن يغير القوم ما بحالهم، ستظل منابر العلم (مقابر) للعقول والأفعال والسلوك.

سئل أبو الجحش عن مبررات النمو العلمي، وهرمه، ثم قبره، فأجاب: إنها طبيعة الحياة، تلد رضيعًا أو تخرج فرخان ثم تشب، وتهرم، وتموت، بأسف أو بغيره، فالموت ليس هكذا صدفة، بل هو مرحلة من مراحل النمو الطبيعي، وهي أصعب فترة (فترة فصل الحياة عن الوجود) ولهذا كانت جامعاتنا منابر (مقابر) للمهام الصعبة، التي تمكنها من دخول القرية الصغيرة بلا خوف، (ويا جبل ما تهزك ريح).

سرور وبهجة تدخل نفوس المستمعين للإجابة التي أجاد التعبير بها المجيب على السؤال السابق، مما جعل العودة إلى حمل الأسفار والمسير على المسارب رغبة، يزداد التمسك بها.

ما أجملها وهي تسير في انتظام وكأنها ريشة تعلو المسارب، أو وكأنها المرسومة بها، في طوابير وتعرجات، صعودًا على الجبال وهبوطًا على السفوح والوديان، إنها العابرة للحدود بأسفارها، وراكبيها والسياط، وكأنها المبرمجة بأحدث

تقنيات العصر، ما جعل تمسكها بالمسارب مضرب مثل للقدوة الحسنة، ولذا لم تفاجأ بشيء، ولن يفاجأ أبناؤها من بعدها بكل المتغيرات والأحداث على الساحة العالمية (وكل تأخيره فيها خيرة).

القدوة الحسنة، لا ترى ضرورة لترك المسارب، بل إنها تزداد تمسكًا بهذه القيم المرسخة للهوية، فالهوية في خطر، إن لم يتم التمسك بقيمها المنغلقة في وجه الآخر. إن التمسك بقيم الانغلاق يظهر مقدرة الحمير على التحمل. فالحمار الذي يعد صوته من أنكر الأصوات عند العرب، يعد تحمله للصعاب وسعة صدره، مفخرة عند أعضاء الحزب الديمقراطي الأمريكي، وعند المؤيدين لهم من بقية شعبهم، ولهذا اختير الحمار شعارًا للحزب الديمقراطي بالولايات المتحدة الأمريكية، في مقابل الفيل شعارًا للحزب الجمهوري، لما يمتاز به من قوة، ورأفة، فالفيل عندما يشحن من مكان لآخر، يكبل بالحبال، ومع ذلك يتوقع أن يثور ويقطعها، ولكي لا يحدث هذا الأمر توضع معه مجموعة من فراخ الدجاج لتتحرك بين أرجله، ما يجعله حذرًا في حركته كي لا يمس الفراخ بأذى.

يا إلهي، الفراخ لا تمس حتى من الفيل، وأطفال فلسطين يذبحون في الشوارع، وآباؤهم يغتالون بالطائرات! كيف يحدث هذا في الوقت الذي تدعي فيه المجتمعات للانضمام إلى القرية الصغيرة، التي نأمل أن لا تكون تشريعاتها أقل رأفة من الفيلة.

الآن فهمت أن السير على المسارب، يختلف عن المسير عليها، ففي الأولى الحمير هي التي رسمت المسارب، لتسير عليها دون أن تحفى حوافرها، وفي الثانية المسارب صممت ورسمت بخطة العبور إلى الأهداف،

التي تستوجب عدم الحياد، ومن يحيد عنوة عنها فالعسرة ميسرة لحسابه، ولذا فالذين لا يرون إمكانية لتجاوز المسير على المسارب سيظلون حملة أسفار، والذين يرون المسير عليها يمكن قطع المسافات وطيها لأجل الوصول إلى ما هو أفضل سيكونون راكبي قاطرات بدلًا من ركوبهم الحمير.

وما علاقة القاطرات بالمسارب؟

شوارع المدن مسارب، وطرق السيارات مسارب، وقضبان السكك الحديدية مسارب، وللطيران ولغزو الفضاء مسارب، وكذلك لمناهج البحث والتفكير العلمي مسارب.

وإلى أين؟

إلى القرية الصغيرة.

حتى الحمير!

بالتأكيد بما أنها قرية صغيرة ستكون فيها الحمير، ولأنها والفيلة تشكل شعارين رئيسين للحزبين في الولايات المتحدة الأمريكية لذا فسيكونان بالضرورة على المدخل الرئيسي للقرية.

إذن لم يتغير الحال.

كل شيء في الحياة يتغير إلا عقول الحمير، ما جعل السائحين في القرية الصغيرة حريصين على دخولها القرية ليركبوها ويلتقطوا الصور التذكارية لهم وهم على ظهورها.

الآن فهمت، أن كل الخطط التي توضع وفقًا لفلسفة المسير على المسارب لا تنفذ إلا بحملة الأسفار، وأنَّ كل الخطط التي تصاغ لشق الطرق وفتح الأنفاق تحت الجبال وتحت الأنهار والبحار هي التي تنفذ لتكون مسارب تطوى من خلالها المسافات بين التاريخ، الذي يمكن السائرين من الوصول إلى محطات النجاة التي تمكن العقل من معرفة التمييز بين ما هو كائن،

وما ينبغي، وما يجب أن يكون أفضل، لتعمل على صناعة المستقبل بدلًا من القصور على التخطيط له.

وكأنك تود أن تسحب الثقة من الحمير.

لا أدري متى وضعت الثقة في الحمير حتى تتهمني بسحبها منها! فالحمار بقدر ما له من مقدرة على التحمل له قدرة على الرفس متى يشاء وكيفما يشاء، ومع أنه حمال الأسفار، إلا أنه الممارس للحرية، فهو لا يعترف بالأديان، ولا الأعراف، ولا بالقيم، ولهذا لا يستحي من أحد، وفي سبيل الحرية يتحمل العقاب مثلما يتحمل الثواب.

أية حرية هذه!؟

يتمرغ متى شاء، ويشهق كما يتراءى له، ويضع الروث أينما يكون، شاء من شاء وأبى من أبى، ومن لا يعجبه سلوك ممارسة الحرية، (فليشرب من البحر) كما يقولون.

وكأنك تود أن تعلن عن تأييدك للحزب الديمقراطي! أو وكأنك تود أن تكون مع المتصدرين للدعاية له!

لو قرأ غيرك النص قد يتهمني بتأييد الحزب الجمهوري أو الدعاية له. فالفيل الذي تملؤه الرأفة على الفراخ أولى بالمناصرة أو التأييد، ولكن سعة صدر الحمار وتحمُّله جعلتني مستقلًا، وعندما ننظر إلى رفسه دون سابق إنذار، وغضب الفيل إن لم تتوفر الفراخ، تجعلني أكره الأحزاب ولا أثق في شعاراتها. الأحزاب تتبدل وشعاراتها تتغير، ورؤساؤها في كثير من الأحيان

لا يتغيرون حفاظًا على ممارسة الحرية.

وكأنك تود أن أعيد سؤالي!

أي سؤال!؟

السؤال الذي سبق أن طرحته عليك. (أية حرية)؟

لا يمكن أن يستقر الأمن في غابة الزيزفون وتتقدم شعوبها، إن لم تتم المحافظة على رؤساء الأحزاب أولًا، وأعضائها ثانيًا.

ما أسهل طمس الحقائق! أية حقائق؟ الخليفة!!!

أية خليفة؟

الشعب الذي لن يتغير ولن يتبدل، ولن يموت مهما تعددت الأحزاب وتلونت شعاراتها، سواء كانت ذات الحمار، أو ذات الفيل، أو ذات المطرقة والسندان أو كانت جمجمة هتلرية، أو تمثال صدامي أو (.....).

وبما أن الأمر هكذا ستضل الحمير التي لا تمتلك الإرادة حمالة للأسفار وللركوبة، مع الاحتفاظ بطموحاتها في المسير على المسارب، والتمرغ في التراب بعدما توضع الأسفار عنها. وستظل نظرية جحا مضرب مثل لمن أراد أن يشتري حمارًا.

نظرية جحا؟

نعم. نظريته في التجارة والدعاية للسوق. أين أجدها؟

بعد أن وزعت في السوق سحبت منه، ولكن معي نسخة، خذيها وأقرئيها.

اشترى جحا حمارًا بثمن بخس، ركبه إلى منزله الذي لا يبعد كثيرًا عن السوق، في الطريق أطاحه الحمار أرضًا أكثر من مرة، وحالما وصل إلى منزله بسلام استقبلته أمه، وسألته عن ثمن الحمار، فأجابها بالثمن الذي اعتبرته أمه ثمنًا غاليًا، وأخبرها بأنه طرحه أرضًا أكثر من مرة، فغضبت، وطلبت منه أن يعيده إلى الذي اشتراه منه أو أن يبيعه إذا كان السوق مربحًا

فاستجاب جحا لطلب أمه بشرط أن تعيره ذهبها لمدة يومين، وفي حالت ما قبلت بالشرط سيعيده لها مضاعفًا، وافقت الأم على ذلك وأعطته ليلًا ما تمتلك من ذهب.

صحا جحا في الصباح الباكر وتوجه إلى حماره، وصاح أكثر من مرة، حماري يلد ذهبًا. حماري يلد ذهبًا. أستيقظ الجيران وجاءوا على الفور إلى جحا ليشاهدوا المولود، فوجدوا الذهب تحت أرجل الحمار متناثرًا، فصدقه البعض من الملاك وطلبوا منه أن يبيعهم الحمار فرفض في البداية، وعندما بدأت الأسعار في الارتفاع قال لهم: لن أبيعه إلا بوزنه ذهبًا.

اشتراه أحد التجار بعد أن باع كل ما يمتلك حتى السيارة التي يركبها، وقبل أن يقتاده إلى منزله دفع الثمن ذهبًا، وسأل التاجر جحا: بماذا تنصحني يا صاحبي؟ فأجابه أن تشبعه كثيرًا قبل أن ينام. عمل بالوصية، وصحا مبكرًا ليجمع الذهب الذي ولده الحمار، فلم يجد تحت حوافر الحمار إلا الزبالة العفنة، فصرخ بصوت عال أين الذهب؟ أين الذهب؟ وذهب مسرعًا إلى منزل جحا وأخبره بأن الحمار لم يلد إلا الزبالة العفنة

أبتسم جحا، وقال: ما نوع الطعام الذي أعطيته إياه قبل نومه؟ كثير من الشعير والبرسيم الأخضر.

يا لك من غبي، كيف تغذيه الشعير والبرسيم وتتوقع منه أن يلد لك الذهب. إذا أردت أن يلد لك الذهب فعليك أن تزوده به، وإلا فلن تجني منه إلا الزبالة.

سقط الرجل على الأرض مغمى عليه، دخل المشفى، وبعد العناية الفائقة صحا من حالة إغمائه، وعاد إلى منزله مترجلًا والخيبة تملأه، خطواته كالسلحفاة، إلى أن مرت بجانبه السيارة اليكساس بقيادة الرجل المتواضع الذي استوقفها بجانب قدمي السائر الذي يكاد يتعثر من التناقل الذي ألم به، سأله من أنت؟ فأجابه أنا الذي لم يلد حماره ذهبًا، فتبسم السائق وقال: لا يهمك أيتها السلحفاة، فالبيع دائمًا أيام الحرب الباردة هو رأس مال يؤدي إلى الربح أو الخسارة، أما اليوم في عصر العولمة فالبيع والشراء مهارة في الإدارة، وفطنة في السوق، وسرعة في التصرف. أركبي أيتها السلحفاة.

إلى أين؟

إلى المكان الذي تقصدين، فالقرية بالنسبة لخطاك بعيدة جدًا، وحالتك في حاجة للمساعدة.

ركبت السلحفاة بجانب السائق المتواضع وقالت: أوصيك أن لا تقف لجحا إن وجدته يمشي على الطريق، ولا تركبه معنا في هذه السيارة الرفيعة، فهو ابن حرام، نصّاب.

فقال السائق: ألا تحبّين فعل الخير أيتها السلحفاة الغلبانة؟

ولأنني أحب الخير كل الخير قلت لك ما قلت، فكن حذرًا، وإلا ستصبح خطاك مثلي سلحفائية، ويصبح دخولك للقرية أملًا قد يقبر معك وأنت في الطريق إن لم تجد من يقف لك رأفة وإحسانًا.

وصلت السلحفاة إلى منزلها، وقالت للسائق الحمد لله إنك سلمت من جحا، فضحك السائق وقال: اتركي جحا وشأنه، وفكري كيف تصبحين جحا إذا أردت دخول المنافسة الحرة.

معك حق ولكن أنت من؟

أنا جحا. فقالت: أنا التي تلد ذهبًا فهل تشتريني؟

أغلق باب السيارة الرفيعة وعاد لأمه، والذهب المضاعف. لمن بعت الحمار يا بني؟

للحمار.

لم أفهم.

معك حق للتاجر الذي كنت أعتقد أنه يسير بسرعة العولمة والذي لمَّا سابقته وجدته من مواليد الحرب الباردة

مبروك يا ولدي السيارة. مبروك يا أمي الذهب. سأعود إليك بعد ساعتين من الآن. إلى أين؟ إلى مشاهدة مباراة الملاكمة. بين من ومن؟ بين الغزالة والأسد. خذني معك.

درجات الحرارة في حالة انخفاض فلا داعي. بعد أن أعود سأروي لك ما حدث.

بعد أقل من ساعة عاد جحا. ألغيت اللعبة أم انتهت؟ لقد انتهت اللعبة. أخبرني.

في عام 2001م قررت الهيئة الدولية للمصارعة بأن تنظم منافسة حرة بين الغزالة المتحدية بلياقتها العالية، والأسد صاحب المنازلات الفعالة، ووقع الاختيار على الثعلب كحكم أوّل على حلبة المنافسة الحرّة، وعندما حان الوقت بالتمام دخلت الغزالة الحلبة ومدربها والمساعدون والمساندون يحيطون بها من كل جانب، فكان الصفيق حارًا عندما أظهرت لياقتها العالية من خلال قفزاتها الجميلة والسريعة على حبال الحلبة. وحالما صعد الأسد بجانب الحلبة، زأر بقوة كادت تسقطني من على المقعد لولا أن تماسكت، ووثب بسرعة فائقة من على الحبال، سقطت الغزالة مغميًا عليها كما سقط مدربها والمساعدون بنفس الحالة. أعلن الحكم النتيجة بفوز الأسد قبل أن يدق ناقوس إعلان زمن البداية، كان الاعتراض من قبل لجنة الحكام المراقبين. استدعي الثعلب للمساءلة عن السبب الذي دعاه إلى إعلان النتيجة بهذه السرعة. فقال: من لا يسرع بكفاءة عالية في عصر العولمة، قد لا يجد له مكانًا حتى في الميدان العام.

أحتفل الأسد والفريق المساعد له بالفوز مع بعض المدعوين، قدمت فيه الفرق الفنية لوحات من الأداء والعرض الرائع. الأسد على كرسيه تملأه المسرّة، والأناشيد الوطنية والأغاني العاطفية تنشد وتغني، الرقصات الاستعراضية تؤدي بإتقان، والمجاهدون القدامى أصحاب الأوسمة الرفيعة يتقدمون القوات المستعرضة. كتائب الأنياب (كتائب شم الأثر) الفائزة بالأحزمة السوداء تقدم استعراضاتها في حركات بهلوانية تشبه الخيال. تصفيق حار من جموع أهل المسارب لأجهزة الاستخبارات وأجهزة المخابرة المستعرضة بأحدث وسائل التقنية الحديثة لمكافحة الجريمة والإرهاب،

والمستعرضة بأحدث وسائل الاتصال والتنصت. حشود المسير على المسارب في حالة من الانبساط التام، تهتف وتصفق وتزغرد، بيوم الفوز العظيم الذي أنتصر فيه الأسد على الغزالة.

دعوة بمناسبة الفوز إلى مأدبة عشاء تقام على شرف بعض الأقارب والمدرب والفريق المساعد له، وبعض من الوجهاء والأعيان والأصدقاء المقربين، كان رأس المأدبة من الصيد البري، وبعض من لحم طير. جلس الجمع حول المائدة والألفة والتآخي يسودان جو تناول الحديث بينهم. ألقى الأسد كلمة على المأدبة، رحب فيها بالحضور، ومجد انتصاراته المتوالية، وأكد على ممارسة الديمقراطية بشفافية بين أبناء الرعية، وأن تعم المساواة والعدل بين الجميع ولا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بالتقوى، والثروة الوطنية ملك عام، والصيد في الأشهر الحرم يعاقب عليه القانون ويعد من الكبائر فلا يقرب، ثم أعلن عن قبوله منازلة الأرنب التي أعلنت تحديها له في المؤتمر الصحفي الذي عقدته في منامها الليلة البارحة بعدما عادت من مؤاساتها للغزالة التي خسرت في خوضها المنافسة الحرة. وحالما سمعت الأرنب بالخبر عن طريق التلفاز فرت من جحرها مرتعبة في حالة من الجنون وتركت أبناءها فيه وهم في اليوم الثاني من تاريخ ميلادهم، سمعت كتائب الأنياب والتنصت ومتابعة الأثر بالأمر، فتوجهت على الفور إلى مطاردتها والقبض عليها في المرعى وعلى جميع المولودين في الجحر. بلغ الأسد وهو لا يزال يلقي حديثه على المائدة بالأمر الخطير، فأمر بإجراء التحقيق بكل شفافية. ثم طلب من الثعلب أن يقوم بمهمته كقاضي قضاة بتوزيع ما على المائدة من صيد على الحضور بالتساوي دون أن يغفل عن أحد أو يسيء إلى مهنته ككبير قضاة له تاريخ في النزاهة وتقدير الآخرين واعتبارهم.

تقدم القاضي المحترم إلى الصيّدة والسكين معه، وقطع منها جزءًا صغيرًا ثم قام بتجزئته بأصابعه على جميع الحضور، فتحصل كل واحد منهم على مقدار ما يحمل بين الإصبعين، وحمل مع مساعديه بقية المائدة وقدمها

للأسد. أبتسم الأسد وقال: من علمك أساليب العدل وهذه الديمقراطية يا أعدل قاض في حكومتي، فأسرع إلى تقبيل يد الأسد، وقال علمتني العدل هذه اليد الكريمة يا مولاي. فقرر الأسد على الفور أن يعين الثعلب وزيرًا للعدل إلى جانب احتفاظه بمهنته كقاضي القضاة.

بعد ثلاثة أيام من إعلان قبول التحدي للأرنب فهمت الحمير ما كان يدور من خطورة في المؤتمر الصحفي الذي عقدته الأرنب في منامها، فجاءت مسرعة في حشود على مساربها تهتف بحياة الأسد، وبإقصاء الأرنب من ميادين المنافسة الحرة، وإنزال أكبر العقوبات عليها لما ارتكبته من جريمة عن سابق إصرار وترصد. أطمأن الأسد على أصالة السائرين على المسارب وشكرهم وقدر عاطفتهم وانحيازهم له عند كل شدة، وفي كل حين، وأكد لهم حرصه على استمرارهم في ممارسة الحرية، وأخذ الحيطة والحذر من أولئك الذين قد تسول لهم أنفسهم بتهديدها، وتعهد لهم بفتح المزيد من المدارس التعليم أبنائهم المسير على المسارب، حفاظًا على قيمهم التي لم تتبدل ولن.

همس الفأر في أذني ابنه عما حدث للأرنب.

فقطع لسانه، وقطعت أذن ابنه قبل أن تعم العولمة، وقبل أن يأتي الصباح.

ما هذا الأمر الغريب!! لا أكاد أصدق لولا ثقتي بك.

لا تستغربي هذه مسارب، وعلى المتفرسين قراءة التاريخ وحفظه ليكونوا شهداء على ما يجري في الغابة، ويكون التاريخ عليهم شهيدًا. قتلت الموءودة دون ذنب اقترفته، ألقي يوسف عليه السلام في الجب دون ذنب اقترفه، قطعت أذن الفأر ولسانه دون أن يعرف ذنبه، اغتصبت أبنة الحصان والشمس في كبد السماء. أصبحت الأرنب وأبناؤها في خبر كان قبل أن تعقد مؤتمرها الصحفي في ذاكرة أحلامها، أتهم الحمار بالتآمر على البعوضة مع أنه لا يعرف التمييز بين ملكتي التذكر والتفكر. أفرغت الخزائن العامة دون ذنب ارتكبته، تحولت قلوب المواطنين مقابر جماعية ومقرات للأحزان دون سابق

إنذار، الهجرة من الوطن حنضل لتحلية المذاق. العودة بالتنازل عن تحمل المسؤوليات شهائد تكريم تقدم للعائدين.

كل شيء في غابة الزيزفون مسارب، شركات التأمين مسارب، البيع والشراء مسارب، تزوير الإنتخابات واستبدال الحكومات مسارب، التقاليد والأعراف، والأديان والقيم مسارب، غزو الفضاء مسارب، قوانين مجلس الأمن والجمعية العمومية للأمم المتحدة، وانعقاد المؤتمرات والندوات العالمية كلها مسارب.

توقفت جنة عن القراءة وهي تنظر إلي باستغراب. فقلت لها لا تستغربي، هذا حال المواطنين في غابة الزيزفون.

ولكن هل هم راضون.

هم في حالة صمت، نتيجة ضربة الشمس التي أصابتهم على رؤوسهم في فصل الصيف، حيث تشتد الحرارة على من لا يمتلك جهازًا لتكييف الهواء. استمري في القراءة لعلك تعرفين المزيد.

المزيد من ماذا؟

المزيد من التعرف على المناهج، على المستويات المحلية والعالمية.

اقرئي.

انعقد المؤتمر العالمي للحيوانات تحت شعار المساواة والحرية للجميع. وحضر هذا المؤتمر مندوبون عن خمس أمم هي: الدجاج، الثعالب، الخراف، الذئاب، والكلاب. كان البند الأول هو اختيار ممثلين لعضوية المؤتمر؛ ونظرًا لأهمية الديمقراطية الليبرالية في تأكيد نظام النيابة والتمثيل، لم يحضر رئيس المؤتمر هذه الجلسة حتى لا يؤثر على حرية الاختيار، وكانت اللجنة المشرفة على الاختيار معينة من قبل الرئيس الديمقراطي، وعندما بدأت الثعالب بتسجيل أسم ثعلب على أحد صناديق الاقتراع صاح ممثلو الدجاج معترضين أن تكون الثعالب الماكرة في لجنة المؤتمر، بل وطالبوا بطردها منه، فصاح

ممثلو الثعالب وبدأت المشادات لولا تدخل ممثلي الكلاب من أجل ضبط النظام، وطلبوا تأجيل ذلك إلى حين آخر، وأعطت الفرصة لمندوبي الذئاب لتسجل أسم من يرغبوا اختياره، فسجلوا أحد أبنائهم الديمقراطيين الأحرار، فصاح ممثلو الخراف والنعاج معترضين على دخول الذئاب الظالمة حملة الإنتخابات، وبدأت الذئاب تعوي وتتوعد الخراف بممارسة الديمقراطية بعد انتهاء انعقاد المؤتمر الموقر، وكذلك لولا وجود لجنة ضبط النظام لكانت المعركة الديمقراطية داخل قاعة المؤتمر على أشدها، وبدأ الضجيج والصراخ إلى أن دخل الدب (رئيس المؤتمر) الذي لا نزاع على مكانه في السلطة، حينها صمت الجميع عن التشاجر، وبدأت الهتافات بحياته إلى ما لا نهاية وكأن الموت لا وجود له في قاموس عالم الحياة. فشكر الجميع، وسألهم عن أسباب الخلاف بينهم.

فقال ممثلو الدجاج: نحن نعترض على وجود الثعالب معنا في ممارسة السلطة، وقال ممثلو الخراف نحن نعترض على وجود الذئاب في ممارسة السلطة معنا أيضًا، وقالت الثعالب والذئاب معًا نحن نعترض على وجود الكلاب في لجنة ضبط النظام، حينها سعد الرئيس وقال: ينبغي أن يستمر خلافكم وعداؤكم إلى أن تتأكد الحرية لكل منكم وفق جهده وحاجته، وهكذا أنتم ديمقراطيون إلى الأبد، ثم قال: تعتبر الدجاجة حيوانًا عالميًا مثلها مثل الثعالب، ومثل الخراف والذئاب والكلاب، ولهذا ينبغي أن تكون التضحية واجبًا عامًا، وإن أمة الدجاج أمة رفيعة الشأن، وتزداد رفعة وشأنًا وحرية عندما تتوحد مع أمة الثعالب في حظيرة واحدة. وينبغي أن تمارس الخراف الديمقراطية والحرية مع الذئاب في حظيرة واحدة أيضًا، حتى تتحقق المساواة بين الجميع، وتمارس الديمقراطية على أكمل وجه، وهكذا ينتهي الخوف إلى الأبد. وفي ختام كلمته شاهد ولاحظ أن الجميع يبكي فسأل نقيب الدجاج: لماذا يبكي الدجاج أيها المحترم؟

يبكي يا سيدي صاحب الفخامة والجلالة والمعالي من الخوف (من وحدتنا مع الثعالب).

وسأل نقيب الخراف لماذا تبكي الخراف أيها المحترم؟

تبكي يا صاحب الجلالة من الخوف (من وحدتنا مع الذئاب).

وسأل نقيب الذئاب لماذا تبكي الذئاب يا محترم؟ تبكي من الخوف. أي خوف تعني؟ الخوف من لجنة ضبط النظام.

وأجابه نقيب الثعالب وهو يشكره إننا نبكي يا صاحب الفخامة والمعالي من الفرحة (من فرحة الوحدة مع الدجاج).

وفي الختام قال رئيس المؤتمر: ينبغي أن تنتزع الحرية انتزاعًا لا أن تقدم على طبق من فضة، وطلب من الجميع عدم الخوف من ممارسة الديمقراطية والحرية بكل شفافية وأن يناقشوا الأمر بعد خروجهم من بوابات واحدة، ويعودوا للانعقاد في يوم الغد بعد أن تتضح عندهم الأمور.

وفي اليوم الثاني حضر الجميع بشكل منظور وغير منظور لمناقشة أهمية الحيوان العالمي. فوجد الدب القاعة غير ممتلئة مثل يوم الأمس، فسأل نقيب الدجاج عن سبب غياب أعضاء نقابته؟ فأجابه لم يغب أحد. كلهم موجودون يا سيدي.

أين هم أيها السيد؟

إنهم يا سيدي في بطون الثعالب، وهكذا كانت الخراف في بطون الذئاب وفق إجابة نقيبهم.

فقال لهم: إذن انتهى الصراع بينكم، ولم يبق إلا صراع النقابات، ولن ينجح في الانتخابات التالية إلا خاتم البشر الحيوان العالمي (الثعالب والذئاب).

حمدت نور الرب على أنها لم تكن من ضمن ساكني غابة الزيزفون. وأنا تأسفت لحالي، وقلت لن ينتهي الحال كما يتوقع الدب دائمًا، بل ستكون النهاية العادلة من غير المتوقع.

وما هذا غير المتوقع الذي تعقد العزم عليه؟ في هذا العصر ستسود الحرية، الديمقراطية، الشفافية. وما رأيك في المساواة؟

مسألة يظل الطفل فيها طفلًا، والشيخ شيخًا، وفيها يظل المعاق غير سوي، والكاذب غير صادق، والاستعدادات والقدرات بين الذكور والإناث في حالة تشتت، ويظل فيها الفقير في عوز، والغني يسعى للمزيد.

معك حق، لا يمكن أن يستوي الأعمى والبصير، ولا تستوي الظلمات والنور، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون، ولا تستوي الحسنة والسيئة.

تدخل السيد ناير بقوله: الحرية والديمقراطية والشفافية، هذا أمر متوقع.

إذا كنت تتكلم بلغة القرن العشرين الذي طويت صفحاته، دون أن يمكننا من ممارسة الحرية في حقوقنا، وأداء واجباتنا، وتحمل مسؤولياتنا، ودون أن يمكننا من ممارسة الديمقراطية بكل شفافية، إذا كنت تتكلم بتلك اللغة العقيمة، أقول لك: إن الأمر قد ولى ولن يعد كذلك. وإذا كنت تتكلم بلغة القرن الواحد والعشرين، أقول لك معك الحق، حيث الثقة والإرادة، والتقدير والاعتراف، قوانين سيادية بين الناس، والحاكم له كامل الحرية الدستورية، التي تخضعه للمراقبة والمحاسبة أينما يكون على بساط النزاهة. والمواطن له كامل الاعتبار والمسؤولية وفقًا للقوانين والتشريعات العالمية التي تجيز له أن يرفع صوته في كل وجوب، وأن يسلك دون انتظار باعتباره رقيبًا عامًا على حريته وحرية الحكومة وعلى كل كبيرة وصغيرة، داخل الحدود وخارجها.

بإيضاحك هذا قد فك اللبس والغموض السائدان في ذهني، الذي لا زالت تعشش فيه تلك القصة.

أية قصة؟

قصة القرن.

نأمل أن توضح لي ما أمكن ذلك.

مع أن القرن العشرين أمتاز عن غيره من القرون التي سبقته بالحداثة وغزو الفضاء إلا أنه متحسر على نفسه وخائف على نهايته بدخول القرن الواحد والعشرين الذي يتوقع أن يكون أفضل منه تقدمًا ورقيًا في مجالات العلم والتقنية التي لم يؤت منها إلا قليلاً، خاصة بعد أن أكد له ذلك منجمه الخاص الذي استدعاه لاستقراء هذا الشأن، وذلك لثقته فيه وفيما يقول، فجعله المستشار الأول في رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وفي حالة السلم وحالة الحرب. هكذا كان القرن العشرون هو عصر التقنية وعصر الثقة في المنجمين.

وذات مرة غضب القرن العشرون من منجمه حينما دعاه للاستشارة من أجل دخول الحرب وخوضها ضد إحدى البلدان المعادية له ولسياساته، وبعد الاستشارة المنبثقة من عبقرية المنجم الذي أشار بدخول الحرب دون تردد والنصر المؤزر حليف للقرن العشرين، بعدها قرر العصر دخول الحرب، وبعد أيام من خوضها انهزمت جيوشه، فدعا العصر منجمه على الفور ليقتله نتيجة كذبه، فقال المنجم بخوف وحذر وهو يرد على سؤال القرن العشرين لماذا كذبت أيها المنجم؟

فأجاب: لم يخل بي التنجيم إلا مرة واحدة في العمر، وما ظننت سيدي أن تكون هذه المرة. فسأل العصر المنجم قبل أن يقتله: ما هو المتوقع بعد موتك؟

فبكى المنجم قليلًا وقال: إنك ستموت يا سيدي بعد موتي بيوم واحد فقط، فاندهش العصر من هذا الخبر المؤلم الذي لا يطيقه وقد يصدق في حينها. طلب العصر من حراسه ورجال الأمن الابتعاد عن المنجم وفك القيد من يديه، وإبعاد المشنقة التي أعدت لهذا الغرض، وطلب من رجال أمنه رعاية المنجم والحفاظ عليه من كل شر، وأن يعيش في أفضل الأماكن وتحت أحسن الظروف، ولهذا كذب المنجمون ولو صدقوا.

ولهذا كان تفكيرك قاصرًا على المتوقع، ولم يكن ممتدًا إلى غير المتوقع الذي بيده الخير.

مآس... مآس... في عصر النور يعتقد في المنجمين! لا تستغربي يا آنسة جنة. كيف لا أستغرب من حال من لا إرادة له؟!

لا لم يكن الأمر بالمطلق، فبالإرادة يصبح المؤيدون معارضين، ويصبح المعارضون مؤيدين في كل دورة انتخابية.

ولماذا هذا التبدل والتغير؟

هذه سياسة القرن، التي يتم فيها التقلب دون أن يتم فيها التغير.

سامحني أقول لكم إنها سياسة يخربون بيوتهم بأيديهم.

وأنا أقول لك ما هو أكبر، هناك من يتبدلون في اليوم الواحد أكثر من مرة.

وفي سبيل ماذا؟

في سبيل مصالحهم الخاصة.

لم أفهم بعد.

ما رأيك يا ناير تروي لها كيف تتبدل النعال؟

إذا كان لها من الوقت ما يسمح بذلك فلا مانع. نعم، لا زال من الوقت ما يسمح لي بالاستماع. رواية النعل المتبدلة بكل اختصار هي.

(6)

بعد الشروق فتحت النعل عينيها، وتساءلت: أين الحفر؟ بالأمس كنت أمشيها، والظهر معتلًا كالحال معتل، هل تبقي يا شمس لتخفي مآسيها أم أن مثل الرمال تتبدلين، فالجد عند الجد باعها، وأنا أبيعك في الصدر أخفيها، أين المنافع قدمي فأنا وريث الجد، يوم باعها قبض ثمن العمالة فيها، وأنا بديل الجد خطأ في الإخلاص أمشيها. وكما عين مدير أنا أنتظر، وعلى يقين لن أكون إن لم أفرق بين الذين أرافق.

هذا الأمر جعل النعل تغمض عينها واحدة أكثر من الأخرى إلى أن مال فكها السفلي يمينًا وفكها العلوي يسارًا، فتحتهما تجاه الشمس المبهرة ثم نظرت حولها فلم تر إلا التلمع الشمسي شدة.

يا إلهي أين أنا؟ هل تبذلك؟ أم الشمس؟

ضحك المتفرج.

ابتسمت الشمس!! لا تستغرب أيها المتفرج، كل شيء يتبدل، فما بالك بالنعال.

ولكن أين المسطرة؟ لا تصدق، كل شيء يتبدل. وما قصة هذا المتبدل؟

بعد أن تأكد لها أن الطريق تمهد، بدأت تمشي وتقفز بعد أن كانت تزحف على بطنها، نُفض الغبار عنها، دخلت المدينة، في البداية كانت مشدودة إلى تاريخ جدها المطلين، الذي تعهد له الإيطاليون بتعيينه مديرًا إذا مكنهم من دخول النجع بلا قتال، حمد الجد ربّه على السلامة بدخولهم النجع، وأصبح مديرًا. جمع القبيلة على الفور كبداية عمل فلم يجد استحسانًا حيث صوت المجاهدين يعلو. خرج على الفور ليجتمع بأبنائه وأحفاده، فكانت

ساعة ولادة التوأم (البهجة والخوف) البهجة بنيلهم رضا جيوش الغزاة، والخوف من صوت النجع الذي لم يقبله بالاستحسان.

أبنائي وأحفادي الأعزاء: كل شيء في الحياة يتبدل، فأنا على سبيل المثال كنت بالأمس مفردة من مفردات النجع، وبعد أن تبدت أصبحت سيدًا عليهم، ولأجل أن تقضوا على الخوف وإلى الأبد، عليكم بالتبدل وإلا ستعودون إلى مفردات النجع، ولا تصدقوا أن جيوش الغزاة سترحل، هذه أضحوكة، ومع ذلك إذا رحلت فعليكم بوصيتي.

وكأن الحفيدة (النعل) تنصت، فهي كالحرباء ليس لها لون ثابت يمكن أن توصف به حيث تتلون بالطبيعة. في الصحراء الماركسية تخفي حالها وما تملك في عناوين التقشف، وفي بيوت الدعارة رأسمالية المظهر، وفي حديقة القذافي خضراء اللون، يعتقد البعض أنها المثقفة، تدعي الصدق وهي لا تصدق إلا ما يكتب عن الأبراج.

بطبيعة الحال من يرتضي أن يكون نعلًا لا يعترض على من يكون عرّاكًا أو صباغًا لجلده وبالتالي لا يعترض على من يكون لابسًا له، فالأمر بطبيعة الحال بيد الملَّاخ (العراك) والصباغ، والمشفنجي أو الميبري (الحيَّاك اليدوي بالإبر الخاصة بالأحذية) ومن ثم بيد دافع الثمن. فإذا ذهبت لتشتري نعلًا من السوق وأعجبتك واحدة مما في العرض فلا تتركها إلى يوم الغد، فإنك لم تعد لوحدك في السوق، ولا تعد الراغب الوحيد في شرائها؛ وتأكد كلما تبدلت الفصول تبدل عرض الأحذية من صالات عرضها، فأحذية الشتاء مبطنة، مما يجعل باطنها مختلفًا عن ظاهرها، وفي فصل الصيف تقدم الجلدة على حقيقتها سواء كانت كما هي عليه منذ سنوات الغزو الإيطالي إلى ليبيا، أو إنها منذ سنوات تنصيب الملك كرهًا عليها. وهكذا ما بين الفصلين تتبدل. في فصل التمور (الخريف) ومع رخات أول مطر العام تبتل فترتخي كالعجين وتتساقط مع الأوراق، وعندما يأتي الربيع تلمع وكأنها تورق

مع أزهار اللوز حتى يظن البعض بأنها المثمرة. هكذا تستمر الخدعة مع من لا يعرف جذورها إلى أن تثمر الأشجار وهي لا تثمر.

تتنقل في القرن الحادي والعشرين بأداة التحكم الآلي (الريموت الكنترول) فعن طريقه تدخل إلى دورات المياه لتمتص من رحيقها ما يملأ فتحات مسامها، وبعد الخروج بطبيعة الحال تجف، لأجل أن تحتفظ بالعطر الفواح الذي علق بها.

لا تلوموني فأنا لم أدخلها ولم أخرجها، بل الذي أدخلها وأخرجها هو المستخدم وليس أنا (الريموت).

النعل: ومن الذي كان وراء إدخالي إذن؟

الريموت: كثيرون، فأنا مثلك أتبدل بين الأيدي، ولكن آخر المستخدمين لي هو الملمع.

آه الملمع!!، لا تصدق فهو لم يدخلني إلى الحمام، بل أنا الذي أدخلته إليه.

يا إلهي كم كنت أعتقد بأنكما رأسان في شيشة (قنينة)! لا، لم نكون، بل هو الذي يعتقد، كما كنت تعتقد.

إذن ما الذي جمع بينكما؟

التبدل. فنحن نحب الإسلام كما نحب الماركسية (على اعتبار أن الدين أفيون الشعوب).

وما موقفكما من الرأسمالية؟

قواعد فساد، ولكن (عليهم موش علينا).

يا إلهي ولهذا أدخلتموني معكما إلى الحمام، فأنا أمير ينبغي أن أكون على الصالونات والمقاعد اللائقة.

لا تضع نفسك في محل غير محلها. فأنا النعل التي تلمع في كل صباح، وأدخل المكاتب والصالونات الفارهة، وفنادق الخمسة نجوم، وفي الجلسات الخاصة في كل مساء أكون بين نعال أكبر العاهرات والقوادين.

على أية حال لن تدخلي أيتها النعل مكانًا راقيًا ومحترمًا ما لم تجديني متربعًا في صالوناته.

إذن لا فرق بيننا.

لا تخطئ! الفرق كبير، فأنا الأبنة المدللة في الصالونات وأماكن الذوق الرفيع، وأنت أيتها النعل الأبنة المدللة في الأقدام الداخلة والخارجة من دورات المياه.

ستكون عبارتك هذه في أذني الأستاذ الملمع، وسيتم إلغاؤك من جميع الأماكن، وستندم لا محال.

الملمّع: فلتلغ، تلغي من جميع المقررات كما تم إلغاء اللغة الإنجليزية في الثمانينيات. وعلى أمانتك إبلاغ الأمين المختص بتنفيذ القرار، وصورة منه إلى الرقابة.

النعل، لقد تم الإجراء، ولكن، الرقيب يستفسر عن الأجهزة التي بحوزتنا وفي مكاتبنا.

أبلغيه بالمنشور (عليهم موش علينا)، وأن لا يبلغ به أحد على الإطلاق، لكيلا (يفيق بنا) ونذهب كما يقولون (دخان سحور).

من الأنسب أن نطلبه هاتفيًا فهو في حاجة إلى سماع صوتك.

لا بأس.

كيف الحال؟

الحال منصوب.

ها.. ها.. ها أنا لا أمتحنك في اللغة العربية، بل أسأل عن صحتك.

بخير.

أبلغتك النعل بالمنشور؟

نعم.

إذن، بوجه السرعة، ولكن "عاد رد بالك، راهو الأمر خطير للغاية، ومطلوب منك شخصيًا المتابعة، وإذا سألوك الجماعة...، رد بالك، هذه مؤامرة ونحن نتابع في خيوطها، ولي عاد اندوروا لهم فيها حتى كان ما عندهم (ريموت كنترول) يجب على جماعتك التصرف، فأنت فهمهم كيف، إيه.. إيه.

(تأييد مع إيماءات بالرأس مع أنه حديث هاتفي). أنت ما يهمك في حد".

وهل الجماعة على علم بذلك؟

(موش قلنا لك رد بالك هذا الأمر غاية في الخطورة، والله ما تفهم!!؟).

حاضر، كن متهني.

النعل تسترق السمع، وهي في حالة انشراح، ثم تخرج إلى المكتب لتصل بالرقيب ثانية. كيف حالك يا أبو الشباب؟

بخير.

هل اتضحت الفكرة عندكم؟

نعم.

إذن عجل، حتى لا يتم طلبك هاتفيًا ثانية من الأستاذ (الملمع)، فهمت وله ما فهمت...

كن متهني.

والله يا أبو الشباب هذه مسؤولياتك، نحن فقط ننبهك، لأنك تهمنا، ولو كنت آخر، ما نطقنا لك بما نطقنا، وكما تعرف ليس كل شيء يتم فيه تعميم كتابي.

كيف عاد، نحن إخوة، ومتحملون كامل المسؤولية، ولكن كثرت اتصالاتكم بنا هي سبب نجاحنا، وللعلم الموضوع الذي تحدثنا فيه قد تم

أي موضوع؟

موضوع المرأة.

لا ثقة في الهواتف، قل شؤون المرأة.

معك حق، لكن كما يقولون: إذا كان المتحدث ذاهبًا يكون السامع عارفًا، وبدأ يتغنى بالأغنية التي تقول كلماتها: (لي في قضيتكم شهود أربعة... وشهود كل قضية اثنان).

الذي يهمني أن ملمعي لم يصدق. وأنت أرجوك لا تطلعه على حقيقة الأمر، هذه القضية سيتم طمسها والقضاء عليها، فالأصدقاء مهتمون بهذا الموضوع.

بالتأكيد وأنا تحت المساعدة.

أغلق الهاتف، وركبت النعل سيارتها الفارهة، وفتحت شريطها المفضل، وهي تردد دون تردد مع كلماته وموسيقاه (بيع الجمل يا علي.. بيع الجمل يا علي.. واشتري مهرًا إلي.. بيع.. بيع.. بيع الجمل يا علي.. بيع.. بيع.. بيع الجمل يا علي). بعد أن استمعت إلى الشريط المسجل، قالت في نفسها: كلما عرفت كيف تؤكل الكتف كلما كسبت أكثر، وكلما تبدل كلما استمري أطول، لقد كسب المال من على مسرحية شعاع، التي مكنتني من التبدل بين أرجل الراقصات ومجالساتهن المباركة. ولكثرة اختلاط النعل بمن يجدن تحريك أردافهن والخصور، لتحريك جيوب الذكور، باتت الليل ساهرة تتبدل بينهن والأرجل، وبين الدخول إلى دورات المياه، حتى أنها

تشبعت امتصاصًا من عفن (التواليت)، وما يتساقط عليها من أجساد المتنعلين لها والمتنعلات، ومع أنها تلمع في الصباح والمساء إلا أنها تتبدل بين العشية وضحاها، تدخل المكاتب بأقدام ناعليها، وتمتد هنا وهناك، لإظهار ما وضع عليها من لمعة التبرج، ليثيرهم إلى الممرات والممشى حيث يشاءون، في مقابل ما تشاء.

بعد ما سمع الطيب مني هذا الحديث بإصغاء، قال لي، بالإنجليزية (to late)اعترفت له بذلك، وقررت الصمت، حتى أن ذات مرة سألني سائل: كيف أنت ونعالك؟

فقلت له كما قال الناس، من تشكره مرة يصعب عليك ذمه، فما بالك بي أنا الذي شكرتها أكثر من ألف مرة. قررت الصمت إلى أن التقيت هذا العام بالأخ الطيب الذي بدأ بقراءة قائمة طويلة من النواقص في النعل المتبدلة، فقلت له على الفور ما سبق أن قاله لي بالإنجليزية (to late). وفي اليوم التالي لملاقاتنا التقيت بأحد الأطباء الذي لم يبادلني السلام بحرارة برغم طول زمن عدم اللقاء، فتساءلت لماذا؟

فقال: لأنك ترافق النعل المتبدلة. فأجابه حاضر كريم الخلق، بقوله لم يعد كذلك منذ أحد عشر عامًا إذا لم تخن الذاكرة.

قلت نعم، منذ عام (1992م)؛ ولذا قررت إبراز معالم فك الشباك، ولم أجد ما يليق إضافة إلى النعل إلا التبدل، وعرفت أن من ينتعل النعال تنتعله بالتماثل، ومن يقبل بذلك لا يغضب من تعفن قدميه إذا أطال بها المسير، وإذا انبسطت سعيدًا بلبس نعلك الملمعة عليك بقبول ابتساماتها عليك عند خلعها وأنت تشمئز من رائحة التعفن التي علقت بقدميك من انتعالها. وتأكد أنها في انتظارك لترافقك في حالة السلم إلى أين ما تشاء من سبيل ما تشاء، وتأكد أنها لن تدخل معك معركة تعبر فيها المروية واليابسة، وإذا ضحكت عليها مرة واحدة فهي ستضحك عليك مرتين. تدري أو لا تدري، وفي كلتيهما مصيبة أو مصيبة أكبر. الضحكة الأولى إذا دخلت اليابسة

وهي ملمعة وتود صعود الجبال بها تتبدل مع أول حجارة وحبة رمل، وذرات غبار، وفي الثانية إذا عبرت بها اليابسة ودخلت بها المروية ترتخي وتتسع فلن تمشيك أكثر من خطوتين إن لم تغرقك في أول خطوة تدخل بها الماء، فتضطر لتركها وتقبل بالعبور حافيًا من أجل المستقبل، وإلا ستكون من الغارقين.

يقول الطيب وكأنك تتكلم عن علاقة النعل المتبدلة بالقدمين؟

لا لم أتكلم عنها، بل عن معرفتي التامة بها. وكأنك الصندوق الأسود!!

هل تعلم أن النعل تتربع كل صباح في الحجر لكي تلمع، وتلمع!؟

لقد فهمت كيف تلمع، ولم أفهم قصدك من تلمع؟

معك حق، ولكن هل تعتقد بأن تلميع النعل لأجل إظهار حسنها ونعومة ملمسها فقط؟ أو أن القيام بهذا الفعل من أجل تدفئة قدمي المتنعل وحسن مظهره؟

بالتأكيد تتنعم النعال بملامسة أكفّ الملمّع وتزيينه، في مقابل تدفئة قدميه وكذلك حسن مظهره.

ولهذا من يلمِّع يلمَّع، ولهذا تعلقًا فتصاحبًا.

أحبك أيتها النعل المتبدلة.

أحبك أكثر أيها الملمع. فإلى أين الاتجاه؟

إلى تصفية الحسابات مع الآخرين.

الآخرون!!

نعم، الذين يشكلون خطرًا على مستقبلنا، وعلى مصالحنا المتبادلة، وثق أننا سننجح.

فلنبدأ بتعميم دروس الشك على الجميع، حتى لا يكون الشك فينا، ولنتمكن من الفرز، ثم ندع الشك لملاحقة الخوصصة والخصوصية.

أتفق معك بالتمام، ولا تنس أن التبع والأزلام بطانة إسناد، والطامعون قوة للمراقبة والمتابعة، ولزراعة السحب بين الشمس وتابعيها وتابعي التابعين.

فلنسرع قبل أن يقال لنا بالإنجليزية ((to late) وحينها لا ينفع الندم.

تسريبات خفيفة، ثم لقاءات ببعض التبع الذين لا يشكون في الصلاحيات الممنوحة لنا، والثقة التي وضعت فينا ورسخت في أذهانهم عبر الزمن.

ولا تنس الذين مكناهم من تولي الإدارات والمواقع القيادية، والذين يتبدلون، ولا تنس أني غدًا سأتوجه إلى أرض الكنانة.

(كيف أنساك دا كلام، أنساك دا كلام... أنساك يا سلام... هو ذا اللي موش ممكن، أبدًا، ولا أفكر فيه..) هكذا غنت السيدة أم كلثوم.

يا للغرابة لن ينساها وينسى ربه، الذي جعل منه شيئًا بعد أن كان لا شيء يذكر!! فمن يستمع إلى ما تتشدق به ألسنتهما، ويلاحظ ما يقدمان عليه من أفعال واطية، قد تجعل السذج والبسطاء يصدقون. يصدقون أن الشمس يمكن أن تشرق من المغرب، إلا المؤمنون يتذكرون حديث المعجزات الذي دار بين أبي الأنبياء والنمرود. فالشمس وحدها ستظل، وسيبهت الكافرون. فمن نسي نعمة ربه أنساه، (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه).

بطبيعة الأمر عندما يدخل العربي إلى صالات الجلوس العربية، يخلع نعليه فتختلط مع نعال الآخرين، وكأنها قطيع من الجرذان، حتى أنها ذات مرة احتشدت في مظاهرة غضب أمام الأبواب، احتجاجًا على شدة معاملة الأقدام لها، خرج المتنعلون على الفور لفك الشباك، فلم يتم التفاهم، نتيجة

ارتفاع أصوات الغوغاء، والمشادات مع بعض المتطرفين، فطلب اختيار نقيب منهم ليمثلهم في المفاوضات، فوقع الاختيار على النعل قيد البحث.

ما الأمر؟

لنا جملة من المطالب.

ما هي؟

أن تصمم لنا أرفف تليق بسمعتنا. وأن يتم تلميعنا صباحًا ومساء، وأن يتم تشغيل العاطلين ما عن العمل خاصة المؤهلين الذين لهم مهارات في دخول الحمامات ودورات المياه، وخريجي المعاهد العالية للسياحة على أحواض السباحة المفتوحة منها والمغلقة.

تقصدين أن تتبدل أحوالكم؟

نعم.

ومن بعده إلى أين؟

إلى مواقع متقدمة.

صمت، يتساءل الاستغراب فيه، نعال تطالب بمواقع متقدمة!؟ ثم يفصح عن الإجابة، ولم لا، بلا شك سنعمل على استبدال حالكم من تعال إلى أحذية، سواء كنتم من جلود بقر أو غنم، أو كنتم من جلود الأفاعي والتماسيح، أو حتى نتاج الصناعات البلاستيكية واللدائنية، فلا تقلق جميع المواقع المتقدمة تنتظر الجادين والمخلصين منكم، وستكون لك الأولوية.

ابتهجت النعل، فانبعجت، جهتها اليمنى، حتى تمكن القراء من معرفة القدم التي تنتعلها.

من يصدق أن هذه القدم، يكون هو المستخدم لهذا النعل!؟

لا لم يكن هو المستخدم لي، بل أنا الذي أغريته، واستخدمته.

لا تصدق، بل أنا الذي استخدمته كيفما أشاء والله لم أكن معه في شيء، إلا ولي فيه ما أشاء.

وضع الضمير يديه على رأسه وتساءل: من يا ترى يضحك على من!؟

فقالت النعل: يلعن من لا يضحك على من يضحك عليه. ولكن أين الضمير؟ ألم أقل لك إن الضمير وضع يديه على رأسه. نأمل أن يكون في حالة راحة، وليس في حالة استسلام.

ومع أني معك آمل. إلا أن نفسي لا تقبل براحته، ومع ذلك يا ليتها تقبل.

أرجوك أن لا تقبل، هذه لغة الأحذية والنعال، وليس لغة أصحاب الذوق الرفيع، الذين ينتمون. ينتمون إلى شمس الفضيلة، ولن يتأخروا مرة عن تأدية الواجب العظيم، فمهما تراكمت الثلوج على قمم الجبال، فإن الشمس كفيلة بذوبانها، ومهما تكاثفت السحب فلن تكون فاصلًا بين الشمس والأرض، وهكذا سيكون الزمن كفيلًا بكشف الحقيقة مهما تبدلت النعال.

فالنعل عند الكلاب ريحها طيب، وإن وضعت وسط المجالس شمت تعفنًا، ومن يبتغي غير الرجال مجلس، يجد النعال في المجالس جليسًا، والأمر بين تعفف وتعفن في الظلم، والحجة سيف تقطع العفن، ونور الشمس بينهما برزخ، لا يلتقيان لمن عندهم بصر.

هذه الجملة تذكرني، بالسمكة التي ربطت بحبل، وتركت في البحر، حتى ضنت أنها الحرة، تمتد كيفما تشاء، وأين، ومتى ما تشاء؟ وعلى حساب من لا يشاء، ونسيت أن الحبل برغم طوله في أي لحظة يمكن أن يجتذبه ماسكه؛ وبإمكانه إخراجها من الماء إلى الهواء الذي به تختنق.

يا للغرابة، السمك سيظل هكذا، برغم أنه يعبر البحار والأنهار والمحيطات، إلا أنه يقع في شباك الصيادين.

أين الغرابة في ذلك!؟

الغرابة مع أنه يرى إلا أنه يقع في الشباك، فالأسماك تشاهد ولا تلاحظ.

معك حق، ولكن لا فرق بين المشاهدة والملاحظة؟

لا تقل هذا، فالفرق كبير، المشاهدة تقتصر على حاسة البصر، أما الملاحظة فتمتد إلى العقل كمستوى إدراكي، ولهذا تقع الأسماك في شباك الصيادين برغم أن لها أعين تبصر بها.

ولهذا أيضًا تتعفن النعال، ولا تعرف أنها متعفنة.

والله لو كنت سمكة لطلبت العفو، حتى أبقى في أمان. وهل السمك في أمان؟

نعم

أين هذا الأمان؟

الماء.

ولكن، في الماء شباك الصيادين.

برغم الشباك. فالأسماك لا تعيش إلا في الماء (الأمان)، وإذا أخرجت، أو خرجت، ليس لها إلا الموت.

ليتها تفهم!

وكأنك متعاطف معها!

المسألة ليست تعاطفًا، ولكن الإنسان سيظل إنسانًا، تملأه المحنة ولو على مجني، فالمحنه بين الناس مدرسة، تغفر لمن هو في فعله جان، فإن تاب كفر عن ذنبه صدق، يمحو به ما سجل الذنب، وإن عاد مثله السمك، بين الشباك والتفجير مصيدة، والذنب لا تمحوه مغفرة، فالذنب مثل النقش

على الحجر، ولكن حنين الناس بينهم عاطفة، تجد من الأبرار نيلهم عذر، إلا الذي شاب على ما شب به، فالعذر لا يكفيه عن القبر.

ما رأيك يا جنة فيما كنت تستمعين إليه؟

كنت في حالة تأسف مع كل كلمة وفعل. مجتمعات تنعدم الثقة بين أفرادها، لا يمكن لها أن تتقدم، ولا أن تسهم في صناعة المستقبل الذي يمتلئ بطموحات الداخلين إلى قرية التآخي بين الشعوب. أحس بتثاقل وصداع، فأنا في حاجة لتطهير نفسي وبدني مما علق بي، هذه أبحر لم أكن أعرفها من قبل.

وهل هناك أبحر أفضل منها؟

نعم. هناك البحر الفياض، الذي يغذي الروح، ويطهر النفس، ويقوي البدن، ويزرع الثقة مع الآخرين.

أين هو هذا البحر الفياض؟

على مقربة منا.

وهل لنا بزيارته؟

نعم، فلنكن سويا إلى هناك.

ولكن هل الاستفادة من ورائه.

بلا شك.

إذن هيا بنا قبل فوات الأوان.

(7)

شاطئ فسيح تتفتح الروح برؤاه، فتنبسط النفس مع خلجانه، ويلتحف البدن بأمواجه الهادئة، وبالعوم يزال الدنس، نحن واللؤلؤ والمرجان نسبح في مياهه الدافئة، نتغازل عاشقين كالحرير نتلامس.

ألم أقل لك إنه بحر فسيح مياهه لينة به النفس تلتحف عروسا.

نعم إنه بحر فسيح فيه نفسي تتسلطن. لا أفرق بين لين مياهه ونعومة سارية التي تغزوني في كل ملامسة.

وتأكد أنك أيضًا تغزوها.

لقد صدقت يا جنة أنه يغزوني في كل خلية من خلاياي.

أحس معه بالدفء رقة ولينا.

أنظروا إلى تلك الأسماك التي تتطهّر، ألم أقل لكم من يدخل هذا البحر يتطهّر؟

يا إلهي لأوّل مرة أرى الاندماج بين نضري ونظري، وكأن الذوق بصري، بحر عفيف لا مكان فيه للمفسدة، ولا للسيطرة، لغة النحن هي اللغة السائدة بين مبحريه، فيه تسقط كل الكلمات الساخنة والباردة وغير الموزونة، ويرتفع فيه كل ذوق واتزان.

في المحيطات والبحار الملحة لا أستطيع أن أفتح عينيّ، وهنا في هذا البحر تأبي عيناي أن تغمضا، لين المياه ودفؤها، ونعومة ملمسها، وامتداد النور في رزم الأمواج، يرسم ملحمة من السطح إلى القاع فتكشف سرنا في العشق، وتمحو من الذاكرة عفن النعال المتبدلة، وتسقط الحكومات نتاج التزوير الانتخابي، لتعلن بأن الحياة كلها نضر.

بحر يحيطنا برقته الدافئة، ويحفزنا على الانتشار، فنتبعثر فيه وكأننا المالكون الوحيدون له دون سوانا. دخوله من علامات التفوق، والخروج منه دليل رسوب، فمن يريد النجاح عليه بالاجتهاد ليكون له التفوق رفيقًا.

لو سألوك يا نور عن بحر الحب فماذا تقولين؟

أقول بحر آمن يمتلئ بغير المتوقع.

وأنت يا ناير ماذا تقول؟

أقول كما قالت سارية: أمر يسري في النفس حتى يسقط منها مفاتيح السيطرة. وأنت يا أبا مؤيد ماذا تود أن تقول؟

أقول: الحب بحر. لن أرى الجمال إلا في إبحاره، وعند الإبحار لن أرى جميلًا إلا شواطئه. قبل دخوله كنا فرادى، ثم جماعة، وبعده أصبحنا مثنى في اللسان، في المودة والفؤاد، في الكلام ساكنين، ولنا في الصمت قصة

قصة ماذا؟

قصة الحب بحر. فالحب بحر يمكن السباحة والسياحة فيه، والغوص في أعماقه، السباحة بين خلجانه وخلجاته تجعل الحبيب يحس بأنه إنسان يمكن أن يتغير من حالة اليأس إلى حالة الأمل، ومن الغفلة إلى الصحوة، ويكتشف أن عينيه قد اكتشفتا له عالمًا جديدًا لم يره من قبل، مع أنه ليس بالبعيد عنه، فعندما تسبح في البحر بثقة تكتشف الغرائب والعجائب، وقد تكفر عن ذنوب غفلتك وقد تزداد ذنوبًا إذا لم تكن حذرًا. وبقدر ما تبتسم لك أمواج البحر عندما تقبل اليابسة بين الحين والآخر، بقدر ما تفاجئك بتيارات قد لا تكون في حساباتك التي عرفتها من خلال سباحتك السابقة في مناطقه التي فاجأتك بتيارات، لم يسبق لك معرفتها، ومع ذلك كن صادقًا للبحر. وعندما تكتشف تياراته وأمواجه ثائرة فلاطفه دون مواجهة، حتى يهدأ ويفسح لك المجال الأمن للسباحة فيه، ولهذا البحر ملاطفة بين المبحرين، فلاطفه

دون تردد، وكن مباردًا، ولا تنس أن أكبر السباحين قد غرق في البحر فلا تغتر. والفرق كبير بين المبحر، وبين المتفرج على البحر المتفرج عليه لا يمكنه اكتشاف أسراره ومنافعه، أما المبحر فقادر على ذلك. والبحر مغر بالسباحة والإبحار فيه، فإذا لم تبحر فيه سيبحر فيه غيرك ويصاحبه، وحينها يحدث الانزعاج والغيرة من مبحريه الجدد. لا تنس أنه البحر الواسع الذي فيه حق للجميع، والذي لا يكون فيه أحد على حساب آخر، مما جعله يزداد أمنًا وجمالًا بزيادة عدد سباحيه ومبحريه، ولهذا تكون السباحة الانفرادية فيه مخيفة، وركوبه الانفرادي خطورة. وعليه عندما تبحر فيه في سفينة مع آخرين تكون رحلتك أكثر متعة وأنسًا وتحس بقيم جديدة للبحر تختلف عن تلك التي عرفتها وأنت سابح فيه لوحدك، والتي عرفتها وأنت في حالة سباحة مع الآخرين، أو عند ركوبك زورقًا أو قاريًا. ولكي تعرف البحر وتكتشف أسراره عليك بالإبحار فيه بطرائق مختلفة، وبما تستطيع، وفي مواقيت مختلفة، أثناء الشروق وأثناء الغروب، وفي الليلة القمرية، وكلما تعددت طرائق إبحاره كلما اكتشفت قيمًا جديدة تزيدك عشقًا له وتمسكًا به، فلا تضيع فرصة حياتك من دون إبحار يقبل بإبحار الآخرين، الذين لا يكونون على حساب إبحارك.

البحر يستوعب رحلة الأب والأم والأبناء وتكون السباحة فيه لطيفة عندما يستوعب الأسرة بكاملها والأقارب والجيران والأصدقاء، وبني الوطن، والأمة والأخوة في الدين، وأكثر من ذلك أن يستوعب أهل القرية.

وعندما استمعت سارية إلى ما رويته عن البحر، قالت: وأنا أين مكاني في بحرك؟

أنت مركز النبع، فلا تنزعجي يا حبيبتي من أحد إلا إذا كان أحد يريد إخراجك منه ليحل محلك، حينها ينبغي أن تخاصميه حتى لا تحرمي من حقك في التملك والتمتع اللذين يريضان النفس والبدن والعقل. وعليك أن تميزي بين من يدخل البحر على حسابك وبين من يدخله من أجلك، ولا تغضبي إذا رأيت البعض يلاطف البحر، والبحر يستوعبهم ويفسح لهم

المجال، فقد يكون ذلك كله من أجلك. وإذا تبين لك بأن الداخلين فيه يقومون بمهام تنظيف ما علق به من بقايا المبحرين الآخرين، وبقايا زيوت السفن والنفايات التي ألقيت فيه ليلًا أو نهارًا، فإن كل ذلك من أجل أن تبحري وتسبحي في مياهه الدافئة بسلام، فلا تغضبي لكي لا تغضبي البحر وتفقدي كنوزه، من اللؤلؤ والمرجان وتفقدي فسحته التي تستوعبك كلك على بعضك، وتنسيك الهموم. إنه المجال الذي يتفتق فيه الخيال ويتحقق منه الأمل، والمكان الذي تتنزه فيه النفس وتتمتع، وتحفظ فيه الأسرار، إنه الوطن الذي يستوعب سباحة الأمة بكاملها. وكل من يرتدي ملابس البحر ويدخله لا يمكن أن يبلله المطر مهما هطل، لأن البحر لا يمكن أن تبلله المياه لأنه المستوعب لمياه الأمطار والوديان والأنهار، ولهذا يحفظ ويستوعب من يلتجئ إليه ويمكنه من الفسحة والتمتع، وكيفما يشاء يستوعبه، فلا داعي للخجل منه فهو الذي يستر السابح في مياهه عن الآخرين سواء كان لابسًا، أو عاريًا، مما يجعل السابح فيه في أتم الراحة والطمأنينة. فالبحر سترة فلا داعي للتستر عنه، يفتح لك ذراعيه التبحر بكل حرية، لم يعتمد كلمة المضايقة وسلوكها في مفرداته، بل الذي يضايقك هو الآخر الذي لا ينتمي إليه، والذي لا يقدر غرامك للبحر، فكن مستورًا أمام البحر من كل ما ترتديه من عورة، حتى لا تكتشف عورتك فيغضب، ومن يدخله بوعي يكون آمنة، وحتى إن ركب معك الملايين أو سبحوا ستظل بالنسبة للبحر أنت الذي لا يقارنك بأحد، وعندما تعرف حقيقة ذلك تعتز بأنك أبحرت وتفتخر ببحرك الذي يستوعب الملايين دون أن يغدر بك أو يتركك، ولهذا يغني على البحر الذي يستوعب الجميع، دون أن يتخلى عن أحد أو يبذل أحدًا بآخر، فلكل واحد مكان في البحر، للأم مكانها وللأب مكانه، وكذلك للأخوة والأحباب والأقارب، وكل من له حق، وإذا تساءل أحد: لماذا كل هذا والبحر مالح؟ عليه أن يعرف لولا ملوحة البحر ما تطهرت أجسامنا، وما تذوقنا حلاوة طعامنا، وما تيسرت سباحتنا وما تنزهنا، ولهذا ركوبه تطور، والغفلة عنه تأخر، لقد وجد من أجلنا، فنحن من أجله نسعى وفي أعماقه نسبح.

ولكن هل كل من يركب البحر يمكنه السباحة الآمنة فيه؟

في اعتقادي لا. إلا بعد معرفة واعية بقوانين العوم وممارسة السباحة بحذر. فتح عينيك ولا تخش ملوحة البحر التي فيها الشفاء للجسد من بعض الأمراض، حتى تتمكّن من رؤية ما لم يره من لم يبحر بعد، ولا تعتمد على عينيك فقط حتى لا تكون كالأسماك التي تفتح عينيها وتسير إلى الأمام إلى أن تقع في شباك الصيادين دون أن تدري؛ فعليك أن تدرك أن في البحر الصيادين وفيه العجائب النافعة والضارة، والكائنات والنباتات والجبال والوديان البحرية، والكنوز المختلفة، والدفء الذي يعطي للحياة معنى، وأكثر من ذلك فيه البرازخ.

أبو مؤيد، أنصحك أن لا تتحدث للآخرين عما رأينا من برازخ، حتى لا يتهموك بالمبالغة أو يتهموك بأكثر من ذلك. فهو سد مانع لاختلاط المياه المالحة مع العذبة، دون أن يبني من تراب خرساني أو يبنى من معدن. الناس تعتبر سد الصين معجزة بفعل الإنسان، باعتباره سدًا فاصلًا ولا يمكن عبوره إلا بوسيلة، وأنت تود أن تتحدث عن سد عازل بين المياه الملحة والحلوة دون أن يتمكن البعض من زيارته والوقوف على معالمه كما يتمكنون من الوقوف على معالم سور الصين العظيم.

نعم، ولكنه حقيقة أليس كذلك.

بلي إنه الحقيقة المعجزة، ولكن لا يدركها إلا المتوسمون. بسباحتنا وغوصنا تمكنا من رؤيته، ويا ليت الآخرين يتمكنون.

وكما تعرفين لن تكتب لك حجة إلا بعد وقوف بعرفة.

وكما تعلم لن يكتب لك الإبحار وتسجل في صفحات المبحرين بارًا إلا بعد وقوفك على البرزخ، وتمكنك من السباحة عليه ملوحة وعذوبة، دون أن تختلط المياه الملحة مع العذبة، فبإمكانك أن تغترف بيدك اليمنى ماء

عذبًا وأن تغترف بيدك اليسرى ماء ملحًا عندما تمارس السباحة والسياحة في البحر الفياض.

ولهذا سأسأل، وإذا أجبت لن أصدق.

ولذا فإن البرزخ معجزة المبحرين يشيد في البحر بين حب الأمومة والأبوة، وبين حب العشيق والقريب، ويحافظ عليها دون اختلاط، ما يجعل التمييز بينها دون حيرة، مثلما يتم التمييز به حدًا فاصلًا بين حب البلاد وحب العبادة وحبه العباد، وبين تحية العلم وتحية الحكومة.

حافظ على نظافة البحر من أجل نزهتك ونزهة الآخرين، ولا تفكر أن تحيطه بسياج لتجعل له بوابة تكون أنت حارسها أو رقيبًا عليها. إذا فكرت في ذلك عليك أن تعرف أن أمواجه ستثور وتزيح كل سياج، ويقبل اليابسة في الليل والنهار ليؤكد للجميع أن من طبيعته المد والجزر، خاصة عندما يشاكي القمر والقمر يشاكيه، لأنه مرآته الذي يرى وجهه فيها لكي يحافظ على جماله أمام عاشقيه.

ولكن هل البحر واحد؟

هناك البحور متعددة: الأبيض والأسود والأحمر والأزرق الأصفر والأسود والبحر الميت، ألوان من البحار والماء واحد، هذه مسميات فمن يعتمد على عينيه فقط قد يخدع وهكذا بقية الحواس. فالبحر بالعاطفة كفاقد البصر تستوي عنده الألوان، أما المبحر بالعقل والفكر فقادر على الاختيار، ويعرف أن البحر لم يكن مرآة للقمر فقط، بل مرآة للنجوم والكواكب أيضًا، ولكل من يريد أن يرى وجهه على حقيقته. هذه مسائل طبيعية لابد وأن تحدث بإرادة. والحب الذي يحدث بإرادة هو الذي يكون الإبحار فيه بالتداعي والتناغم الوجداني الذي يجعل من الآحاد أزواجًا.

قالت سارية على لسان أبنة النيل المؤدية (كلام جميل ولكن غير معقول) فلا يمكن أن تقنعني بأن يحدث التعدد ولا تحدث الغيرة.

في البحر الواحد يا بستاني يتعدد المبحرون سباحة وركوبًا، دون أن يغضب أو يغار أحد من آخر، ولكن إذا حاول أحدهم أخذ مكان الآخر يحدث التماس. فالقلب الواحد يحب الملايين في وقت واحد، فعندما يكون فردًا واحدًا يتساوى الحب فيه وتكون القاعدة المنطقية: حب على واحد يساوي واحدًا. وعندما يكون زوج وزوجة تكون القاعدة المنطقية: حب على اثنين يساوي نصفًا، وعندما يكون زوج وزوجة وأبناؤهما الخمسة تكون القاعدة: حب على سبعة يساوي سبعًا، وهكذا يتعدد المحبون في القلب الواحد كما يتعدد أبناء الأمة في الوطن الواحد دون أي غيرة، إلى أن يستوعب الحب الآخرين الذين لا يكون حب أحدهم على حساب الآخر، هذا هو الحب بالإرادة. أما الحب بقرار فينتهي بانتهاء أسباب القرار مما يجعل بحرك يا حبيبي أسود أو أحمر أو ميتًا، ولهذا عليك أن تعرف قبل أن تبحر، وإلا ستغرق أو تغرق عندما تكون من الغافلين. فحب الإرادة تتساوى فيه كفتًا الميزان بين المحبين فلا يكون لعبة، بل أنه خاصية طبيعته مستمدة من حب المخلوق للخالق.

قال صاحبي ناير: الآن فهمت أهمية الحب في اخضرار بستانك وتزين أشجاره وعذوبة مياه بحيرته وصفاء سمائه وعمق بحره ووفرة إنتاجه.

قالت نور وأنا كيف تراني يا أبا مؤيد؟

وأنا على قمة (برج إيفل) أراك في السماء قمرًا يحاط بالنجوم، كما يحاط البرج الذي أنا وسارية على قمته ليلًا بأضوائه الخلابة، وأراك مدينة باريس في ليلة رأس السنة تتلألأ أضواؤها مع تلألأ النجوم وأضواء برج إيفل العظيم، وفي نفس حبيبك ناير أراك بستان الحلم، الذي تملأه الأماني، ويمتد عبره نهر الحياة، ويملأه السائحون المبحرون في الأعماق بين الأمواج ومن فوقها ومن تحتها، في نهارك شروق، وفي ليلك قمر مضيء

لا أظن أنني كما تراني.

أجاب نور على الفور أنت يا حبيبتي كما رآك صاحبي أبو مؤيد وأكثر، فأنت قطعة من الجنة بالنسبة لي.

وأنت بالنسبة لي الفردوس الذي يفتقده الآخرون.

وأنا يا أبا مؤيد لم أكن إلا معك في برج إيفل؟

أنت يا سارية يا أم مؤيد دائمًا معي أين ما أكون، ألا يكفيك هذا؟

هذا ما أريد.

بعد حديث عميق مع عيني ناير، سألتني نور عن تجربتي مع البحر، فقلت لها بالتأكيد لا تختلف عن تجربتكما.

يا ليتك تقول، كيف بدأت.

بدأت تجربة إبحاري عندما كنت أتنزه على شواطئ البحر الجميلة التي شدتني إليه بالمشاهدة والملاحظة اللتين أثارتا في نفسي أهمية لدخوله بكل شوق. فمن خلال المشاهدة تنعكس مياه البحر وأمواجه في عيني المشاهد، وعندما يحس بلطف أمواجه وصفاء مائه ونقائه يكون للملاحظة شأن من خلال الوعي والانتباه ومن خلال الإصغاء لنغماتها التي تشده إلى البحر، وتمكنه من التعرف على أسراره وجماله مع الفجر والشروق والغروب ومع القمر، وتنقله من الظاهر إلى الكامن الذي يجعل العينين تتكلمان، تتناغمان وتتبادلان الحديث بكل صراحة دون أن ينكشف أمرهما أمام الآخرين، من مشاهدة المتحرك (البحر) إلى أسراره وقوانينه التي ينتظم عليها. ما يجعل النفس تنطق والروح تنطق بغير لسان، حديث يرسل ويتم استقباله بكل لين، حديث فيه الآهات فواصل جميلة بين جمله المسترسلة.

تعمقت هذه التجربة بالاستئناس للبحر الذي يتحقق بالإرادة من أجل ما يحس به المبحر من معنى يجعل له قوة تجاذب مع البحر بالتمعن فيه والإصغاء لأمواجه وهي تقبل اليابسة، وإلى ما يحيط به أو يدخله، ويزداد الاستئناس إلى البحر بالاستئناس إلى المبحرين من خلال التلاطف بأهمية

البحر في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات. بدأ الإحساس بأن البحر مكمن للإثارة ومحقق للإشباع، فيه تظهر الألفة وتتربع على قمة الهوى، تفترش بنور الشروق وتغطى بشفق الغروب لتغازل القمر وتشاكي النجوم.

ومن خلال الاستئناس يحدث اكتشاف الحسن وهو الذي يمكن المبحرين من تفتيش قدراتهم الفكرية ويجعلهم قادرين على التغني به عرفانًا بأهميته، واستعدادًا لدخوله بعد تردد وحذر. وإذا حدث الدخول إليه دون حذر في هذه الخطوة قد يحدث الغرق الذي يؤدي إلى ولادة الأسف عليك، فالبحر لا يستجيب لكل من يدخله لمجرد مشاهدة أو ملاحظة حسنه، بل يستجيب لمن يلاطفه أثناء ممارسة السباحة، فلا تدخل البحر إلا بقدر ما تستطيع أن تخرج منه بإرادة وإلا ستجد نفسك في القاع.

ولا تنس أن في اكتشاف الحسن تحدث الصحوة (صحوة العاطفة) وهي اليقظة الإنسانية بأهمية البحر في الحياة، واكتشاف المناغاة الوجدانية، ومن ثم تعرف كيفية استخدامها في التعامل مع المبحر الآخر الذي صحت عنده عاطفة الإبحار. ولكن لا تنس أن هذه الصحوة غريزة حيوانية فطرية فلا ينبغي أن تقود الإنسان وتسيطر على عقله، بل يجب على الإنسان أن يقودها لتكون تحت ضبط الضمير الاجتماعي وبما يحقق نجاح المبحر.

وصحوة العاطفة تؤدي بالضرورة إلى عشق البحر، والتعلق به بعد معرفة قوانينه التي ينتظم عليها، والتي تشد المبحرين إليه وبعد إحساسهم بالطمأنينة والارتياح أثناء السباحة، وعشق الإبحار بوعي قد يمكن المبحر من اتخاذ قراره بصواب. إنه بيت الأمان الذي تلتحف به النفس، وهو الغذاء مشبع الروح، والطبيب ضماد الجروح، والقوة التي تفقد السيطرة على مفاتيح التحكم إذا ما سرت في كل خلية من خلايانا، بحر تحلو السباحة والسياحة فيه، وبلباسه ينكشف الأمر، وبالعوم فيه تزداد السكينة، قوة التماسك تشتد حتى تفرج الكربة، العناق مع دقات القلبين نزهة تمكن المحبين من غزو الفضاء، وتمكنهم من الهبوط بسلامة على أي كوكب يشاءون.

يتمتع المبحرون بالبحر بعد الغوص في قلبه والتربع في سويدائه واكتشاف أسراره والتعرف على كنوزه وتعلم قانون الطفو والحكمة من ورائه، فالبحر سترة لكل مبحر، لأنه لباس لا تبلله المياه وسترة عن عيون الحاسدين، فمن يريد النجاة من اليابسة الجدباء التي تكثر عليها الأكاذيب وتتناقل فيها الإشاعات، فعليه بالبحر الذي يستوعبه مع من يرافقه إلى النهاية، مما يجعل لحياتهما معني ومن وراء لقائهما حكمة.

وأنا أروي لنور قصة بدايتي مع البحر، تمتد إلى يد أم مؤيد خلسة فتسري روحها في دون إرادة في كل كبيرة وصغيرة، ما جعلني أفقد السيطرة على مفاتيح التحكم، لسان حالي غير لساني، ونظراتي في حالة تبدل، وأنا أهتز من رأسي حتى قدمي.

ما بها كلماتك تتقطع، وأفكارك تبتعد عن الانسياب والانتظام يا أبا مؤيد؟

أحس بزلزلة تكاد تهزني لولا سؤالك المنقذ.

يضع ناير يديه حول خصرها فطنة منه بمسببات الزلزلة، ويعانقها بحرارة، فتهتز على أثرها في حضنه وأنا على أثرها أجد نفسي أتزلزل بين ذراعي السارية في الوجدان، القاطنة وسط الفؤاد، أين ما تمتد يداي تتنعم بملمسها الزبدي، من يصدق يا فؤادي أنت من سكن الفؤاد، من يصدق أن بعدك لا يطاق، أنت جنة فيك يحلو المذاق، وأنا فيك أجاز ليس لي إلا العناق، كم يطول أن تزدادين اشتياق، لا فراق، أنت جنة ليس فيك الاحتراق.

كيف تحس بنفسك؟ وأنت كيف تشعرين؟

السباحة في الأعماق خير إجابة، أترك الكلمات جانبًا وأنطق بغيرها ثم أسبح وأتركني معك أسبح.

قلت في نفسي: وكأنها لا تدري بأننا سويًا نسبح في عينيها، أنا وناير ونور وجنة وآخرون، البعض تحمله المصاعد إلى الأعماق، والبعض يتزلج على المدار القمري، والبعض في المواقع العنبرية مثلنا يتذوق.

ماذا تقول؟

تركت كل الكلمات التي قد تلهيني عن السباحة والسياحة معك.

وأنا شطبت كل شيء من أجلك.

أنت لباس لي وأنا لباس لك، لن نعمل إلا ما يرضي الرب، الذي جعلنا نسبح سويًا في البحر اللجي، نغوص فلا نشرق، نطفو مع المشرق، نعانق الأمواج، وفوق الرأس تاج أنت فلا أغرق.

أنت الهوى يسري، متعة مع أسري، في قمة النشوة قبل الضياء أسري، لأخذ اللذة من ذوقها العذري.

لم أر أحدًا يسبح، أين رفاقنا؟

الحب بحر، والبحر فسيح وعميق، مهما تمتد أنظارنا لن تغطي امتداده، ولأن للأدب اعتبارًا، تركونا نمارس الحرية بأسلوب ديمقراطي وبكل شفافية في الأعماق، وطفوًا أو هم على عمق آخر يمارسون فيه الحرية مثلما نحن نمارس.

يا إلهي كم هي ممتعة.

ماذا تقصدين؟

السباحة في بحر الحب الذي فيه تعمل ما تشاء وكيفما تشاء. لا تنظر إلى بدني فنظرك إليه يوقد في نارًا.

لا تقولي لا تنظر إلى بدني، بل قولي أنظر إليه ومد يديك التلامس مع زبديته.

أنت الذي يوقد النار وأنت الذي يطفئها، فأفعل ما تشاء وكيفما تشاء ومتى تشاء، فأنا بين يديك أسبح.

قطعة من الجنة بين يدي تسبح، وأنا في كل خلية أسبح!

لا تتردد أسبح، فأنا مع كلماتك أسبح، في حنانك ودفئك أسبح، أغوص إلى الأعماق لأخذ الكنوز وأتصدق.

يا للغرابة.

هل – لا سامح الله – قلت شيئًا من جنون أو هوس.

لا لم تقطر إلا ذهبًا. فقط وأنا أنظر من بحرنا هذا إلى تلك اليابسة فرأيت الناس يجمعون الكنوز، ولا يعملون على التصدق، فقلت هذه الكلمة، التي تعطي للمقارنة أهمية ومعني وتدخل الكآبة في مقابل ما يدخله ما قلت في المحبة على التصدق.

يبدو أن حالك كحال من يتحدث مع ظله.

لم أفهم.

ألم تقرأ البستان الحلم؟ لا. لم أقرأ. وما علاقة هذا الأمر بأمري؟

قصة أتحدث مع ظلي كقصة حالك تركتني وتتحدث لنفسك، فلم أسمع منك إلا كلمة (يا للغرابة) بعد تمتمة لم أفهمها

قصيها علي لأفهم.

قصة أتحدث مع ظلي: إنها يا حبيبي قصة الفقير الذي مر بقربه الحاكم، فسمعه يتحدث لوحده دون أن يكون معه أحد، فأقترب منه وسأله مع من تتحدث؟ فأجابه مع نفسي. فسأله الحاكم مرة أخرى ولماذا تحدثها؟ فأجابه الفقير: إذا لم أحدثها أنا فمن هو الأقرب مني إليها ليحدثها نيابة عني. وسأله الحاكم أين هي نفسك؟ فأشار إلى ظله وقال: إنني أحدث ظلي الذي يتهمني بأنني السبب في مشاكله وعدم ثباته واستقراره، ولعله على حق في ذلك.

جلس الحاكم بجانبه ليستمع إلى حوارهما، فقال الظل لصاحبه مرة ثانية أنت سبب مشاكلي وعدم ثباتي واستقراري.

لا تظلمني لم أكن أنا، بل الشمس الحارقة، فقال الظل: لا تعمم الأحكام. فسأله صاحبه: ماذا تقصد بذلك؟ فقال: أقصد أن الشمس لم تكن حارقة لي، ولكنها كانت حارقة لك وحدك.

أبتسم الحاكم لجدية الحوار الذي دار بينهما، وعقب: لا داعي أن يشتد الخلاف بينكما وأنتما رفيقان، وقبل أن أغادر لتأدية مهامي، أود أن أعرف أسباب مشكلتك. فسأله الفقير: هل تقرأ أيها الحاكم؟ فأجابه نعم أقرأ. فكتب الفقير على ظله (سارق الدولة لا يحاكم وسارق الخبز تقطع يداه) فسأله الحاكم: من هو سارق الدولة يا هذا؟

إنهما يا سيدي اثنان، إحداهما خارجي والآخر داخلي، الخارجي ذبابة حفار الساق، والداخلي أنت كما قال لي ظلي، فأرحل بإرادة خير لك من أن ترحل بدونها.

أنصحك أن لا تروي هذه القصة لغيري حتى لا يصيبك ما أصاب البعوضة.

هل بلغ بك الحال من الشفافية ما يجعلك تخاف على البعوضة؟

لا ولكن أخاف عليك، قصة البعوضة، قصة تآمر قُطعت فيها الرؤوس وألغي بسببها البرلمان.

لقد خوفتني وشوقتني. أقصص فأنا أنصت.

شكَّل الضبع برلمانًا لحكومته برئاسة الثعلب، وعضوية كل من الدجاجة والأرنب، والذئب والخروف والحمار، والكلب والغزالة. وعند انعقاد جلسة البرلمان الأولى، طلب رئيس المؤتمر من جميع الأعضاء، العمل من أجل سيادة الرئيس (الضبع) والحفاظ على أمنه حيث له الفضل في اختيارهم جميعًا. وقال: إن مهمتكم الأولى هي، حماية الرئيس من البعوضة التي قتلت

الفيل، وضربها بيد من حديد أينما حطت، والثعلب لا زال يتحدث عن هذا الموضوع المهم للأمة وإذا ببعوضة تحط على خده الأيمن، فتقدم الحمار مسرعًا ورفس البعوضة برجليه الخلفيتين وهي تحط على وجه الثعلب، فأغمي عليه في حينها، ونقل على أثرها إلى المشفى، وعندما حضر رئيس جهاز الأمن زائرًا السيد الثعلب رئيس البرلمان المصاب، سمعه يردد وهو عن غير وعي (مؤامرة... مؤامرة) حينها ذهب مسرعًا إلى مكتبه وطلب من أجهزة الأمن التحقيق وبكل شدة في هذه المؤامرة، ثم أبلغ رئيس الدولة بذلك الذي هو الآخر أصدر أوامر لجنوده بالسيطرة على المدينة، وإغلاق جميع الحدود وغلق المطارات والأجواء في وجه الملاحة الجوية، والقبض على جميع أعضاء البرلمان وأقربائهم المتآمرين. فقبضت أجهزة الأمن بداية على العضو الذي رفس رئيس البرلمان الموقر، وأخذ إلى مقر التحقيق الرئيسي بمقر الرئاسة، وبدأ التحقيق معه بكل أساليب الديمقراطية وبشتى أنواعها، وأحضرت كلاب شم الأثر للمشفى حيث جثمان الثعلب الذي وافاه الأجل المحتوم قبل وصوله إليه بدقائق، وأصدر مدير كتيبة الأنياب أوامره لأعضاء كتيبته لشم صدر جثمان الثعلب من أجل التعرف على أثر النوايا الخفية من المؤامرة، ومع إنها لم تعرف أثرًا سوى أثر حافري الحمار، إلا أنها كتبت في تقريرها، إنها مؤامرة على الرئيس، تصديقًا لما قاله مديرها، وحينها لم يدل الحمار بأي معلومات غير التي حدثت. وبمقارنة تقرير كتيبة الأنياب، واعترافات الحمار، أتفق جميع رؤساء أجهزة الأمن بأنها حقيقة مؤامرة على الرئيس، وأعيد التحقيق بشكل أكثر ديمقراطية مع الحمار إلى أن أعترف بأن الهدف من قتل البعوضة هو قتل الرئيس وإن جميع أعضاء البرلمان ضالعون في هذه المؤامرة. وعندما عرض التقرير النهائي على الرئيس قرر إلغاء البرلمان حفاظًا على الديمقراطية.

بماذا أصبنا يا أبا مؤيد، حتى أصبح حديثنا ينطق بلغة أهل السياسة؟

أصبنا برؤية اليابسة.

يا إلهي إذا أصبنا برؤيتها فكيف يكون حالنا بعد الخروج إليها؟

حال من يتحدث مع ظله. لا أريد الخروج. حان الوقت.

قلت لا أريد الخروج، فلنستمر في التنزه على المدار العنبري، ثم نتزلج على المدار القمري إلى النهاية.

ما رأيك إذن في استراحة في المكتبة العنبرية.

فلننتظر رفاقنا، ثم نقرر سويًا.

مرحبًا بكم، كيف كان الإبحار؟

متعة.

شكرًا لك يا جنة على حسن الاختيار والمرافقة الحسنة.

استأذنكم لقد حان وقت رجوعي إلى تأدية المهام المناطة بي

لك منا الشكر، ولك التقدير والاحترام، ونأمل أن تظلي هكذا شعلة.

نأمل لكم نزهة سعيدة وحياة طيبة، وإذا عدتم ستجدونني في استقبالكم.

لقد قررنا الاستراحة في المكتبة العنبرية قبل التزلج، فما رأيكما؟

إنه عصر المعلومة فلم لا نسرع؟!

(8)

ما هذا الطيب!

تدخلون إلى المكتبة العنبرية وتستغربون الطيب. تفضلوا نحن في خدمتكم.

أين الكتب؟

يبدو أنكم ذاهبون. هنا توجد المعلومات ولا توجد الكتب. هل بإمكاننا الاطلاع؟ بوافر الترحاب، رغباتكم. عن ماذا تبحثون؟

نبحث عن الكتكوت الذي يحتل العالم ولا يريد أن يخرج إلى القرية الصغيرة.

بكل سرور، ونقر على مفتاح العالم، فإذا بالمعلومات في حالة انسياب. احتضنت الدجاجة بيضها بالدفء لتغرس في نفوس فراخها حنان الأمومة الذي يملأها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأن غدًا ينتظرهم بخيرات كثيرة وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار نهارًا وينامون على أغصانها ليلًا، فسأل أحد الكتاكيت أمه: هل هناك عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه؟

نعم.

وما هو؟

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرى وفي وسط الحظائر والبساتين تقدم لكم الخدمة من أيادي البشر المفضلين عليكم في الخلق.

من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضّلين علينا هم الذين سيقدّمون لنا الخدمة.

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفرون لي الغذاء والمأوى والتدفئة اللازمة للبقاء

ولكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم.

إنكم سترون غدًا بعد خروجكم إلى عالمنا الواسع وسترون ما لم يسبق لكم رؤيته، سترون الشمس والقمر والنجوم لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرى، وستعرفون من يمشي سويًا ومن يمشي مكبًا على وجهه، وستميزون بين الطائر والزاحف كما تميزون بين اليابسة والماء، وستنتشرون في كل مكان وتصبحون بين أيدي الناس، وفي محلات (الكونتاكي فرايت تشكن) أنتم الشعار المفضل، وكذلك في محلات (المكدونالدز) التي بها تتزين القرية، وفي المطاعم الفاخرة وفنادق الخمسة نجوم، فأنتم أحباء الصغار والكبار، الفقراء منهم والأغنياء والذين يعانون من أمراض الكلسترول، فبعد خروجكم سترون ما ذكرته، بعدها تعرفون أن ما قلته لكم هو الحق.

نحن لا نثق فيما تقولين ولا نرغب في الخروج إلى عالمكم الذي تدعين بأنه أوسع من عالمنا الذي يمدنا بالدفء ويملأنا بالاستقرار كما تملأنا الراحة والطمأنينة فيه.

أنتم وعالمكم الذي تدعون باتساعه كلكم من أحشائي، وأنا في هذا العالم لم نشبع نهم ثعلب.

ومن هو هذا السيد الذي تتحدثين عنه؟ الثعلب، عدوي وعدوكم.

تقولين بعظمة لسانك عدوي وعدوكم وتصرين على إخراجنا من الجنة التي نحن فيها لنتقابل معه على السرر سويًا، بما أن الأمر هكذا، إذن يبدو أن مصرة على بيعنا بلا ثمن.

لا، لم أقصد يا أبنائي الأعزاء، ولكن عليكم أن تعرفوا أن لكل بداية نهاية، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية، ولكل أسباب،

ومن بينها العداء الطبيعي بيننا وبين الثعالب.

ولهذا يا أماه نحن لن نخرج من عالمنا الواسع وندخل إلى قريتكم الصغيرة لنكون تحت رحمة الثعالب وتكون لنا النهاية، ونحن على يقين أنه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه.

غدًا سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت لن.

وما هو السر في لن هذه؟

أن تموتوا داخل البيض أو أن غدًا لن يأتي علي وعليكم أو يحدث عالم الغيب أمرًا

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلى صوته فتساءلت: وما هذا الصوت المدوي يا أماه؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلى الحياة الاجتماعية العامة ليراكم بأم عينيه تأكلون الحب وتلتقطون الحشرات كما نحن نفعل، وأنا مع فرحته أماثل.

إنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلى عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب.

ستخرجون بقانون التسيير لا بقانون التخيير.

سنصرخ ونبكي.

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل وصراخكم هذا هو سبب كسر البيض ليجعلكم أعضاء في القرية.

صراخ... صراخ... يكسر البيض من شدة الصراخ، ما هذا النور؟ وما هذه الأرجل التي تحملنا؟ وما هذه المساحات الشاسعة؟ وما هذه الشمس المطلة؟ ومن ذا الذي يقدم لنا الخدمة ويسهر على راحتنا؟

بكاء... بكاء وفرحة... فرحة... صدقت يا أمنا صدقت، ولكن أين الغذاء؟

ها هو يملأ الأرض.

ولكن كيف يؤخذ؟

بالعمل. أفعلوا مثلما أفعل، أضربوا مناقير كم في الأرض فأنا لا أرضع.

نشيد القرية الوطني يغني بأصوات الكتاكيت تحت راية الأمم المندمجة، التي تنتظم بواسطتها العلائق بين أعضائها، تعتمد الدجاجة الحاضنة شعارًا للقرية الصغيرة، وتطبع صورة الأيدي المتصافحة على العملة الموحدة.

تأسس البنك المركزي وفتحت فروع له في كافة أرجاء القرية المترامية الأطراف. جلسات المؤتمر العام والمجالس التابعة إليه شبه دائمة، كل شيء يقرر ويتابع ويراقب. اللجان العامة ومجالسها في حالة انعقاد شبه دائم لإيجاد سبل ميسرة لتنفيذ القرارات السيادية التي تصدر من المؤتمر العام. المندوبون ولجان التنسيق بين دول الرعاية الاجتماعية متفهمون لمهامهم وأدوارهم المناطة بهم. قواعد تحمل المسؤوليات تعتمد على تعميم الرعاية الاجتماعية وفقًا لقاعدتي الصلاحيات والاختصاصات.

لجان الأمن العام للأمم المندمجة تسيطر على كافة الأسلحة النووية وتخلص القرية من معظمها. ألغيت الخدمة العسكرية من قواميس دولة الرعاية الاجتماعية. وتأسست على المستوى العام كقوات احتياطية، وترك أمر تحمل المسؤوليات الأمنية إلى رجال الأمن المحلي العيون الساهرة على تطبيق

قانون القرية الصغيرة. الشركات المندمجة هي صاحبة الأثر الفعال في شريعة المنافسة الحرة. الشركات التي رفضت الاندماج أصبح أصحابها في حاجة لمن يدرجهم ضمن قوائم المستحقين لتقديم الرعاية. ما جعل أحد الأميرات عندما طلب منها أن تضع كل شيء على البلاطة، أن تخلع سترتها بكل سرعة وتضعها على البلاطة كما فهمت لكي يقال عنها أنها السيدة المحترمة التي كان لها السبق في دخول هذا المضمار العالمي، فنظر إليها القطيع الإلكتروني مبتسمًا وقال: لماذا لم تضعي كل شيء على البلاطة؟

نظرت الأميرة إلى جسدها وقالت: لم أترك شيئًا سوى سترتي الداخلية.

فقال القطيع الإلكتروني: ولأجل أن تزداد الثقة بيننا اخلعيها. وأجلسي على البلاطة ولا تخشي أحدًا نحن معك، وعليك أن تعرفي أنه لا فرق اليوم بين أن تخلعي ملابسك وتضعيها على البلاطة عند ما تجرين كشفًا عند الطبيب، وبين أن تضعيها على بلاطة أخرى عندما تجبرك أجهزة الأمن السري على خلعها بلا إرادة، فلا فرق بين كل هذه وبين أن تخلعي ملابسك وتضعيها على البلاطة أمام القطيع الإلكتروني فلا تخافي كل ذلك من أجل الثقة، فأنت الآن بلا شك على مقربة منها، ولكن الذي نقصده من أن يكون كل شيء على البلاطة أليس رؤيتنا لجسدك الذي رأينا فيه الأنوثة الدافقة والجمال الفياض الذي غزانا بعد أن خلعت ملابسك بكل إرادة وجلست بيننا عارية. في حقيقة الأمر ما نريده أن يكون على البلاطة هو، حساباتك في الداخل والخارج، وكم درهم تصرفين في اليوم، وما هي أشرطة الفيديو التي قمت بشرائها، وكم دفعت فيها من الدراهم؟ وأن تقدمي كشفًا بتذاكر السفر التي سافرت بها من مكان إلى آخر، وأن تحددي لنا الأماكن التي تحبيها والتي لا تحبينها، ولماذا؟ وأن تبيني لنا المكالمات الهاتفية التي قمت بها ومع من، والهدايا التي اشتريتها، والتبرعات غير الإنسانية التي قدمتها، ولمن

أعطيت وقدمت؟ وأن تكتبي لنا كل ما تمتلكين وما تنوين أن تمتلكي، فكل ما ذكر وما لم يذكر هو الذي تريده أن يكون على البلاطة.

بعد أن خلعت ملابسي وقبلت بالجلوس بينكم عارية، ليس لي بد إلا أن أقدم لكم ما تطلبون، ويا ليتني انسحبت من الميدان وما قبلت بكشف عورتي.

لا تندمي، لم يعد هناك شيء أسمه عورة المؤمنون يتزوجون المؤمنات وأبغض الحلال عندهم هو الطلاق، والقوم اللوطيون يمارسون المتعة بكل شفافية، والشواذ يمارسون

حقوقهم في الزواج العرفي، والطلاق العرفي، والمساجد والكنائس والأديرة أبوابها مفتحة للعبادة، والعصير النبيذي في الحانات وفي محلات بيع العطور والشوكلاتة، كل شيء جنبًا إلى جنب، فليؤمن من يؤمن وليكفر من يكفر..

معكم حق، لكم دينكم ولي دين، وليس لي رد مهيب بعد أن كشفت لكم عن عورتي.

لا تخجلي يا أميرة، إنَّ ممارستك للعهر السياسي والاقتصادي كان أكثر بكثير مما يجب أن تمارسيه من العهر الاجتماعي. فلا تجعلي نفسك أمامنا ملائكة فحساباتك في المصارف تحت رحمتنا، قتلك النفس التي حرم الله بدون حق، نار الفتنة التي كانت وراء إشعالها، وهتك الأعراض مع التعاطي بالمحرمات، كلها في هذا السجل المفتوح بين أيدينا.

يا نار كوني بردًا وسلامًا، الآن فهمت (كل شيء على البلاطة). بما أنها بين أيديكم في هذا السجل المفتوح، فأنا تحت رحمتكم وتحت أمركم.

ها أنتي باعترافك وبنطق الشهادة أصبحت عضوًا في القرية المباركة، وتتوجين ملكة جمال هذا العام في المجلس الاجتماعي بالأمم المندمجة. وإذا فكرت أن ترتدين ليس بعد الردة إلا المقاتلة، فقد أعذر من أنذر.

لأول مرة أرى التتويج والموت يجلسان على مقعد واحد.

لا تستغربي هذه طبيعة الحياة.

حفل مهيب تقدم فيه الفائزة على نظيراتها إلى المنصة ليوضع التاج على رأسها ملكة جمال، تتبختر في خطاها والتصفيق مع خلفية الموسيقا وألوان الأضواء، وعبارات التقديم ترسم صورة على كل الشاشات. دموع الفرحة على الخدين تتسابق لتقبِّل الأرض ولتمحو أثر القدمين من عليها تقديرًا وعرفانًا بالمندمج فيه. في وسط نظيراتها اللاتي تكعبت صدورهن كانت آية، وفي وسط الاندماج كانت النهاية.

بالتأكيد لن يكون بعد التتويج إلا النهاية، ولن يكون بعد تولي المناصب إلا السقوط، ولن يكون بعد النهار إلا سلخه، وكل في فلك يسبحون.

والمعلومات في حالة انسياب، ظهرت على الشاشة الفتاة الصينية بجمالها الرائع، ونظراتها الثاقبة، ورقة مشاعرها ترقص على خشبة المسرح، فأشعلت الحماس في النفوس، وجذبت الأنظار إليها، من المحيط إلى المحيط ترقص وتغني، ولها أمي تزغرد والشعوب. تمد يديها لفتاة تغني على مقربة منها وترقص على بساط كشميري، حتى إنهما تعانقا في لوحة من الجمال بسطت على النفوس والمحيط والجزر المتناثرة فيه. في المقابل كان الجمال مع شفق الغروب لوحة يرسم فيها الهلال على بنت أوروباسيا، فتزداد جمالًا على جمالها كلما طلت على المتوسط الذي يمكنها من النظر إلى صورتها على مياهه السماوية. ما أجملها وهي تسبح وتمد يديها إلى الفتاة أم العينين السوداوين والشعر الأسود، وما أجمل البحر وهما يسبحان فيه طولًا وعرضًا، وما أجمل المآذن وهي تطل على الضفاف وتنتشر ما بين القطبين. تلك الفتاة التي كانت في صباها والجمال، ترقص كيفما تشاء ومتى تشاء أصبحت تركن إلى الحكمة، وتخشى أن تتكرر الدروس التي تنقص من الهيبة.

لقاءات قوة تسقط من حساباتها الأمم المتحدة وتعلن عن قيام الأمم المندمجة في السياسة والاقتصاد، وتشكل مجلسًا ومؤتمرًا عامًا يتولى مسؤوليات اتخاذ القرار ويشكل لجان متابعة الممارسة الحقوق وتأدية الواجبات وتحمل المسؤوليات، ومجالس ولجان نوعية عامة تتولى مسؤوليات التنفيذ. رئاسة الأمم المندمجة دورية تكون فيها الرئاسة بالتناوب بين مندوبي أحد التكتلات والاندماجات الفضائية أو القارية.

الأمهات في المعمورة في جلسة تواصل وتفاهم يغزلن الصوف والقطن والحرير، يخطن الملابس وينسجن البسط الفاخرة لأبنائهن، ليلبسوا ويفترشوا أثاثًا فاخرًا، يهيئ لهم الوضع اللائق للجلوس والتفاهم والتفهم، من يصدق أن الأمهات اللاتي كن في حالة من الصدام أصبحن يجلسن على طاولة دائرية ويتناولن الحديث مع الغني. يعملن سويًا على توفير حياة أفضل بالأمن الغذائي والصحي والمعلوماتي.

أمهاتنا لأول مرة يجلسن في جلسة تفهّم وتصالح بعد أن كنَّ على حالة من الصدام، ويشتركن في كتابة وتلحين أغنية السلام، التي كانت حلمًا في ذاكرة الطفولة. الصبايا والصبيان يؤدون الأغنية، على إيقاعات لم الشمل، والسلالم الشرق أوسطية، وما بين القطبين، وعبر المحيطات.

مبدأ التقبل الذي لم يجد من يأخذ بيده سوى مهنة الخدمة الاجتماعية في تعاملها مع الأفراد والجماعات والمجتمعات أصبح أميرًا متوجًا في جلسات استيعاب الآخر، الذي له الحق في المشاركة واتخاذ القرار المتعلق بأمره السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وعليه واجبات تتطلب منه التأدية، ومسؤوليات تستوجب منه التحمل في مقابل ما يمارسه من حقوق شرعية.

دول الرعاية الاجتماعية صوت الناس فيها يعلو على صوت الحكومات، تدار برؤساء يتم اختيارهم بكل شفافية وإرادة مثلما يتم اختيار رؤساء الشركات بإرادة. تدار شؤون الدولة مثلما تدار شؤون الشركات المؤسسة بموجب القانون الاندماجي. حرية سكان العالم وأمنهم السياسي

والاقتصادي والاجتماعي مسؤولية سكان المعمورة، فلم تعد مقصورة على العاملين في أجهزة الأمن الداخلي والخارجي والمتعاونين معهم.

الإدارة الملاحقة هي المسيرة للأعمال اليومية في ميادين العمل، لقد انتهى زمن البيروقراطية والمكاتب الأبهة التي كانت جاثمة على النفوس، وبدأ عصر المعلومات المتدفقة، الذي يمكن العاملين والمنتجين من حسن الأداء وزيادة الإنتاج.

إنها الثورة.

أية ثورة تعنين؟

لا أقصد تلك الانقلابات التي بها يتم احتكار السلطة، بل التي بها يتحقق التحضر، وتتم بها المساواة بين الرجل والمرأة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وتحمل المسؤوليات سواء في ميادين السياسة أو الاقتصاد أو في ميادين العلائق القيمية المحققة للرفاهية الاجتماعية.

معك حق، إنَّ هذا الأمر يتطلب ثورة على المناهج التي علمت التلاميذ الغش في الامتحانات، فأهلتهم بعد التخرج السرقة الدولة بكاملها. مرتباتهم بضع جنيهات وفي حساباتهم الملايين. صفقات باسم الدولة، والنسب المئوية على كل عقد تحول للحسابات الخاصة، مما جعل الدولة في حالة خسارة وجعل المؤهلين لسرقتها يستغنون.

لقد انتهى ذلك الزمن، وجاء زمن المفكرين والمبدعين في توليد المعلومات.

أي مفكرين تعنين؟

أعني الذين إذا شبت النار في بيوت الجيران سارعوا لإطفائها عملًا بالوصية ومخافة على بيوتهم، والذين يتكلمون عندما يخرس الجبناء، وهم الذين يصمتون حتى يتبينوا. وكلما فكروا تمكنوا من معرفة الحقيقة.

لماذا لا ترمشين يا سارية، ما بك؟

أنا بخير، ولكن حتى لا يفوتني شيء من المعلومات المنسابة.

أنظري يا نور خبر عاجل: (تلغي منظمة الأوبك بعد أن أصبح الذهب الأبيض والأصفر والأسود ملكًا عامًا تجاوزًا للحدود. سياسة السوق تعوِّم اليابسة والماء، البيتزا هوت والماكدونالدز أينما يكون الناس تكون، وكل المراكز التجارية تفتح فروعًا لها في المراعي وأماكن الصيد العام، وفي القاطرات ووسائل النقل الخاص. تلغي كافة جوازات السفر الصادرة من حكومات غابة الزيزفون ويتم العمل ببطاقة المندمجين التي صور على غلافها الخارجي صورة الدجاجة الحاضنة، واليدان المتصافحتان. يتم التمسك بكل القيم التي تؤكد كرامة الإنسان وحريته، ويتم اعتماد جميع المصادر المتضمنة لهذا الأمر كمرجعية لسن القوانين، يعمل به من تاريخ صدوره ويعلن في الجريدة الرسمية. المؤتمر العام للأمم المندمجة).

الحمد لله لقد أتخذ القرار ووضعت القوائم في سلة المهملات.

أية قوائم؟

قوائم الذين يصغون للحديث مع أنفسهم والبطانة ويسأمون من الاستماع لأحاديث شعوبهم، وكذلك قوائم الممنوعين من اللعب مع الآخرين في أزقة المدينة.

إذن بالضرورة سينتهي صراع الحضارات.

ليس بالضرورة، ولكن من المفترض. إذا بدأ الاعتداء فلا مفر من الرفض والمقاومة، وإذا تم الاحتلال فلا هروب من التحرير. وإذا ساد الاستيعاب والتفاهم والتفهم، كان التقدير والاعتراف والاعتبار مادة الموقف في مجالس الأمم المندمجة.

لو سمحت، هل بالإمكان الانتقال بنا خارج الحدود؟

بكل سرور، سأنتقل بكم من حدود التفكير الكوكبي، إلى الامتداد الكوني.

بدأ العرض والكواكب الدوارة في أفلاكها تسبح، الكوكب الأخضر تملأه الحياة والنعيم وحجمه يمتد في غير المتوقع، والكوكب الأحمر تملأه الحياة الملتهمة لهيبا، الكوكب الأزرق لا يابسة فيه، والأصفر كثباني العواصف، الرحلات المخترقة تغزو الفضاء والناس على سطح الأرض يشاهدون الامتداد الذي لم يتوقف منذ أن صدر له الأمر (كن). المخلوق يسيطر على علم المستقبل حسبما هو متوقع، والخالق يسيطر على علم الغيب المتوقع منه وغير المتوقع. مئات الكواكب، وإلى النهاية النجوم والشهب. شياطين الجن والإنس يلتقون، الملائكة والصالحون يلتقون، البصر تسنده البصيرة، والعقل يسنده الإيمان. والعشق يزداد حلاوة بين الأرض والمطر، بين الأنثى والذكر، بين الشمس والقمر، بين العين والنظر، بين الفعل والخبر، بين النزهة والسفر، والطلاق جاء حلًا تتساقط به أوراق الشجر.

مساحات التفكير تتسع فتستوعب مبدأ التقبّل الذي يستوعب اليابسة والماء والنار والهواء، وكذلك جزيئات الأغلفة الأوزونية التي تشكل ستارًا واقيًا بين الأضرار والكواكب الدوارة، اللغة القمرية هي التي بها تكتب محاورات المشتاقين ومحاضر جلساتهم. الدين لله تعالى، لم يعد من يدعي بتعميم الخصوصية، العادات والتقاليد بين المسافرين والمستقرين على الكواكب نحنوية (أنا + أنت + هو)، الانتماءات الأسرية تزداد رقيًا تحت ضوء القمر وقيمة الإنسان تزداد رفعة تحت نور الشمس

في الكوكب الأزرق الناس يتطهرون من الذنوب، ويتنعمون بصحة جيدة وحيوية عالية حيث بالسباحة في مياهه تموت كل الآفات، وفيه تصبح كل خلية من خلايا الجسم تنظر وتتنعم بالملامسة وتتغذى بالمتعة. الناس هناك مستورون بالشفافية التي يرتدونها خلقًا، نسخت العورة من العقول، وترسخت المحبة بين الناس، فلا عورة في الإنسان بل فيه المكارم.

الذين تتطهر عقولهم وأبدانهم ونفوسهم في مياه الكوكب الأزرق يكرمون برحلة أبدية إلى الكوكب الأخضر، والذين لم يتمكنوا من السباحة في الكوكب الأزرق الرائق، هم أولئك الذين كانت اختياراتهم الرحيل إلى الكوكب الأصفر العاصف، حيث الجلود تجف حتى تخف الأجسام، فيختم على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، ثم يرحلون في رزم إلى الكوكب الأحمر الذي كرمه الله باستيعاب كل من يرحل إليه.

يا إلهي من وسط رائحة الطيب شتم رائحة العفونة.

لم أفهم ما تقصد.

عندما تقدمنا تجاه المكتبة العنبرية كان في استقبالنا العطر الفواح، وعندما دخلنا إلى المعلومات فيها اشتمينا رائحة إذا ما لاحت لا تليق إلا بالرزم المرحلة.

نعم لقد بدأنا نشتم رائحة المسك والزعفران من الكوكب الرائق، ورائحة النتانة من الكوكب العاصف.

يا أبا مؤيد أنا في أمس الحاجة إلى كوب قهوة، وأنا أيضًا يا أم مؤيد في حاجة إليه.

ونحن كذلك.

لو سمحت يا أخ هل هناك مقهى في المكتبة العنبرية؟

عشرات المقاهي والمطاعم. ومدنا بالقائمة.

كان اختيارنا الدخول إلى المقهى الأخضر، عشرات الجالسين وعشرات المارين والمارات والآية على الجميع هند. هند الفتاة الأجمل التي استقبلتنا ورحبت بنا وباختيارنا الجلوس

في المقهى الأخضر الذي تعمل فيه، ابتسامتها العريضة كانت لأنفسنا بساطًا، هدوؤها سكينة، وملامسة أناملها نعومة، لاطفتنا بالخصوصية، ونحن في حديث مع نظراتها العاشقة غير متماسكين

تفضلوا ماذا تشربون؟

كانت اختياراتنا وفقًا لمطالبنا المتنوعة. وكانت نظراتنا إليها موحدة، فعندما تأخذ هند الكوب أو الفنجان من على السفرة التي على راحة أحد كفيها وتضعه أمامنا على الطاولة تبتسم لنا عيناها وشفتاها كما يبتسم إلينا صدرها بالتمام. عندما تبتعد عنا تقترب إلينا بحديث نظراتها الدافئة وابتساماتها العريضة، وعندما تقترب منا تغزونا. لأول مرة أعرف أن التمتع بالجمال والنظر إلى الجميل غير مزعج ولا مقلق لسارية، ولا لنور وناير، ولا العبير وعابر، الكل معها في نزهة.

لو سمحت يا أميرة هند دفتر الحساب.

أنا لم أكن أميرة.

أنت والله أميرة: في نفسي أنت الأميرة، لو تعرفين أنك السارية في نفسي لعرفت أن المتوّجة فيها أميرة ولعرفت لماذا فقدتُ السيطرة على مفاتح التحكم، فتّحي عينيك، ألم تريني

أهتز؟

وهي في خجل أنثوي، ما لكم على عجل؟

مواقيت التزلج على المدار القمري قد بدأت.

أحضرت دفتر الحساب فوجدتنا في حالة تفاوض مع أنفسنا التي لا تود المغادرة، ما جعلني اسأل الأميرة هند: هل لديك هاتف وتعطينا رقمه لأجل التواصل والاتصال؟

لقد ضاع الهاتف مني. سأشترك من جديد ويكون رقمه بين أيديكم.

ما رأيك في أن نشتري لك هاتفًا.

مشكورون ولكن وقتكم لا يسمح لإتمام الإجراءات ووقت أداء مهمتي كذلك مرة ثانية بكل سرور.

لو كنت رسّامًا لرسمت الحديث الذي جرى بين عينيها وبيني، وبين شعرها والنسيم، وبينه وبين السباحة التي جعلته غير قادر على خوض السباق معها ما جعله على مسافة من خلفها تاركًا مساحة من فوق ظهرها والخصر والأرداف، كأنه سحابة بين السماء والأرض. أنا تحت ظلاله أسبح، أحرث أزرع، على أمل أن ينزل الغيث لينمو وأحصد.

لو كنت رسّامًا لرسمت نفسي في عينيها ورسمتها في نفسي. لقد التقيت مع الناس على مدارها القمري تتزلج، بعد أن خلعنا الزلاجات وركبنا الدمعة الزلاجة فسحة على الميم والمضمار والمدار الثلجي. لقد رأيت الحب فيها بين الناس نزهة، كل اللغات تتكلم، وكل السماوات أنزلت ما فيها من رسالات لتطهِّر عينيها، فما أجملها تتطهّر، تتكلم، تقرأ تستوعب ترسل.

لو كنت رسّامًا لرسمت القناة التي عبرتها الدمعة، ولو كنت كذلك لرسمت الزاوية التي عبرناها بها، دون أن تعيقها تلك الأشجار السوداء الكثيفة التي عندما كنت في الأعماق شاهدت القمر وردة بيضاء على رؤوسها.

في محطات على الخدين فتحت لنا الأبواب فخرجنا للمشاهدة، فكان التأمل والوداع، وكأننا قد هبطنا من القمر على سطح الأرض.

إلى اللقاء وكأنها نشيد ملحّن بين الناس، الكل ينشدها على أمل العودة في القريب العاجل، إلا الدّمعة لم تنشدها، فقلت: ما بك لا تنشدي معنا!!

قالت: خذ هذه المفكرة ولا تستغرب. الدمعة التي تخرج من العينين لا يمكن لها أن تعود إليها ثانية. والحسرة تملأها سقطت على الأرض مغمى عليها، فلم تصح.

تأسفت كثيرًا على ما أصابها، وفتحت المفكرة التي أهدتني إياها، وقرأت المدون: (أنا الدمعة لا مكان لي إلا العين، ولا حياة لي إلا فيها، فيها نتنزه ونتنغم، نتدحرج ونتزلج، ثم أسبح في قنواتها وأنهارها وبحارها لأطهرها، وفي سبيلها أستشهد).

قلت: نحن ركبناها بإرادة، والأمان كان مرافقًا لنا مع الجمال والذوق الرفيع، والسلامة صاحبتنا حتى النهاية، فلا مسوغات لأن يكون بعد خروجنا بواسطتها أن تستشهد بدون مقابل. فيا ليتني أعرف مبررات استشهادها، ولكن لم أكن محظوظًا لأن أعرف.

وأنا فيما أفكر، فتحت صفحة أخرى، فقرأت: (لقد بذلت ما في وسعي لأن أهيئ لكم مناخًا رائعًا أثناء سياحتكم في ميادين القرية، ولأجل سلامتكم قبلت بأن أعبر بكم إلى الفضاء الخارجي. نأمل أن أكون قد أديت المهمة، ونلت الرضا، ونأمل أن أصل إلى الأرض شهيدة وأن لا يتم اختطافي وأسري من قبل الطيور وأنا في طريقي إليها).

والله لو كانت هذه المفكرة بين يدي قبل نيلك الشهادة لاحتضنتك على صدري وقبّلتُكِ ورافقتُكِ إلى النهاية. وفي الصفحة الثالثة كتب: (لا بكاء على الذين يتمُّونَ رسالاتهم بنجاح، البكاء على الذين يموتون قبل أن يتموها به، وصيتي أن تكون الفكرة مجمع شملكم، والتعصب فراق بينكم، والدمعة بيت حكمتكم فلا تجعلوها تسيل حتى لا تغرقكم، وأعملوا على مكانتكم، ومن يتأخر عنه الحياة تتأخر، عليكم بطاعة الله ورضا الوالدين والإخلاص إلى الحبيب، وعليكم بالعدل وحب الوطن، والبقاء في عيني سارية إلى النهاية. وإلى اللقاء إلى يوم اللقاء).

إلى اللقاء يا مكمن الحكمة